الطبعة الثالثة

الصفويّة

التاريخ والصراع والرواسب





الصفوية

التاريخ والصراع والرواسب

الكتاب: **الصفوية** التاريخ والصراع والرواسب

المؤلف: مجموعة باحثين

الناشر: **مركز المسبار للدراسات والبحوث**

التصنيف: **دراسات إسلامية**

الطبعة الأولى، مارس (آذار) 2010

الطبعة الثانية، فبراير (شباط) 2011

الطبعة الثالثة، أغسطس (آب) 2011

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9948-443-28-5

الكتاب متوفر على الإنترنت: مكتبة نيل وفرات. www.nwf.com



www.almesbar.net

ص.ب. 333577
دبي الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 77 151 36 4 971+
فاكس: 78 151 36 4 971+

info@almesbar.net

مركز المسبار للدراسات والبحوث هو مركز مستقل متخصص في دراسة الحركات الإسلامية والظاهرة الثقافية عموما، ببعديها الفكري والاجتماعي السياسي، يولي المركز اهتماماً خاصاً بالحركات الإسلامية المعاصرة، فكراً وممارسة، رموزاً وأفكاراً، كما يهتم بدراسة الحركات ذات الطابع التاريخي متى ظل تأثيرها حاضرا في الواقع المعيش.

يضم مركز المسبار مجموعة مختارة من الباحثين المتخصصين في الحركات الإسلامية المعاصرة والتاريخية والظواهر الثقافية والاستراتيجية، ويتعاون المركز في هذا الاتجاه مع الباحثين والمراكز والمؤسسات المختلفة التي تتقاطع اهتماماتها مع اهتمامه، وهو ما يضمن تبادل الخبرات وتطوير المهارات الذي يتم عبر تنشيط الحوار بين المتخصصين وتدوير الأفكار بين مختلف الآراء والاتجاهات.


مركز المسبار للدراسات والبحوث
Al Mesbar Studies & Research Centre

تقديم

باديً ذي بدء، يحسن القول بأن الصفوية، التي شغلت لقرون من الزمن المنطقة بحروبها وبصراعها مع الدولة العثمانية، أصبحت حسب الظاهر، ومثلما هي الدولة العثمانية، قضية تاريخ، لكن المتابع لما يجري من خلاف مذهبي، بين السُنَّة والشيعة، سيجد أن له صلة ما بتركة الدولتين، وممارساتهما المذهبية السابقة، من أجل صف الأتباع خلف الشاهات أو السلاطين.

هذا ما دعانا للغوص في تفاصيل الدولة الصفوية، بداية من أسباب نشأتها إلى أفولها سياسياً، وما بينها وبين الدولة العثمانية من حروب أكلت الألوف المؤلفة من شعوب المنطقة، على مختلف قومياتها وأديانها ومذاهبها.

وقد يختلط الأمر على القارئ غير المطلع على تاريخ الصفويين من التجانس في الحرف واللفظ بين الصفوية والصوفية، ثم التدرج التاريخي المتداخل بينهما، فهيمنة أولئك الشيوخ، أو الشاهات، وقسوتهم، وقيادتهم للجيوش يبعد عنهم أنهم تحدروا من طريقة أو طائفة صوفية، وما تمثله الصوفية من وداعة وتسليم للقدر، واحتواء القلوب بالحب الإلهي. إلا أن الحقيقة أن الصفوية نشأت من رحم صوفي، وتحول لقب الصفي جد الأسرة الصفوية إلى طريقة عُرفت بالطريقة الصفوية ثم إلى الدولة

الصفوية، وترى الثانية غلبت الأولى، ولم يبق منها سوى التاريخ، وقد ورد في الكتاب شرح وافٍ حول هذا التحول.

بعد إتمام قراءة هذا الكتاب، قد يندهش القارئ من الغلو المذهبي لأسباب سياسية وبهذه الحدة، بحيث يأمر السلطان سليم الأول العثماني بإحصاء عدد الشيعة لقتلهم، وأن يصبح المذهب الحنفي مذهباً رسمياً فريداً، ومن جانبه يصر الشاه عباس الأول الصفوي، عند احتلاله لبغداد، في القرن السادس عشر الميلادي/العاشر الهجري، على تصفية أهل السُنَّة، وهدم أضرحة أئمتهم هناك، وإعلان التعصب المذهبي، وإبداع ما لم يكن في المذهب الشيعي من ممارسات تجدها نافعة للسلطان ومضرة للمذهب: إعلان سب الخلفاء الثلاثة (أبو بكر وعمر وعثمان)، والأذان بالشهادة الثالثة، التي هي بالأساس ليست من الأذان بصيغته الشيعية التقليدية، وإدخال الخرافات والمختلقات على العزاء الحسيني، في طقس عاشوراء.

واعتمدت الدراسات، عدا دراسة واحدة للعلّامة علي الوردي، على مصادر فارسية أصيلة، ولعلها لأول مرة تجد النور في دراسات عربية.

إن مركز المسبار وهو يقدّم هذا الكتاب "الصفوية: التاريخ والصراع والرواسب"، ليرجو أن يكون قد سد ثغرة في مكتباتنا العربية، التي لم تعط كبير عناية للدولة الصفوية، على الرغم من أهمية هذه الدولة التي امتدت حقبتها لقرون على تخوم المنطقة العربية، بل واخترقتها في بعض المراحل، ودخلت مع منافستها العثمانية في صراع مذهبي وسياسي

مرير، وربما تفسر إعادة قراءة تلك المرحلة كثيراً من الأحداث التي تتسارع حدة وشدة وتعصبا في منطقتنا اليوم.

تركـي الدخيـل　　　　عبدالله بن بجاد

الدولة الصفوية والتشيع

د. علي الوردي

تقديم:

الكتابة عن الصفوية بتجرد

يُعد الدكتور علي الوردي (ت 1995) أبرز الباحثين والعلماء العراقيين في الظاهرة الاجتماعية، بل أحد العلماء الأجلاء في هذا المجال في المنطقة ككل، صحيح أن معظم بحوثه تناولت ظواهر المجتمع العراقي، إلا أن حضوره بالبلدان الأخرى ليس قليلاً.

نشأ الوردي في مكان ديني، حيث عتبة الكاظميين المقدسة، وهذه البيئة تساعد على تكريس المشاعر الدينية، وعلى وجه التحديد المذهبية منها، وقد فتح عينه على الحياة وسط السوق، حيث كان يعمل بائعاً بدكان، ومعلوم أن سوق مدينة الكاظمية، وهي إحدى ضواحي بغداد، يضج بأخلاط الشعوب والثقافات، على امتداد المذهب الشيعي بإيران والهند وباكستان والبحرين ولبنان وغيرها، وبعد حين، تراه استغل ما علق بذاكرته، وترسب في حافظته، من ظواهر، ليقدمها شواهد حيَّة يعتمدها في بحوثه.

بدأ الوردي دراسته بالكاظمية معاصراً نظام الملالي قبل المدارس الحديثة، ثم سنحت له الفرصة أن يكمل الدراسة الجامعية في الجامعة الأميركية ببيروت، ثم الدراسة العليا بمرحلتيها بجامعة تكساس في الولايات المتحدة في علم الاجتماع، ومنذ عام تخرجه 1950، وحتى تقاعده 1970، شغل مكانة الأستاذ والأستاذ المتمرس في جامعة بغداد، وخلال تلك الفترة صدر له ما أغاظ رجال الدين وبقية المحافظين المتزمتين منه، وعلى وجه الخصوص من كتابه "وعاظ السلاطين" (1954)، واستمر الجدل بينه وبينهم على صفحات الصحف آنذاك، بل صنف عالم الدين الشيعي السيد مرتضى العسكري (ت 2007) كتاباً ضده تحت عنوان "مع الدكتور علي الوردي" (1955)، أشار فيه إلى الوردي بأنه يريد نسف أسس الأخلاق والآداب، و أنه تجاوز الثوابت الدينية.

والوردي الثائر على ذلك التزمّت، لم يتكلف الكتابة بضوابط النحو التقليدي، وفي هذا المجال كال له كُتاب وباحثون أغلظ التهم بعدم معرفته

بالعربية، بينما هو يتقصد التحرر من سطوة النحو، وقد حذا حذوه فيما بعد الباحث العراقي الهادي العلوي (ت 1997)، حتى أن المجلات تشير عادة في مقدمة مقالاته إلى رأيه وطريقة كتابته، حتى لا يرمونه بالضعف اللغوي أو اللحن، ولعلَّ ما تصادفونه في البحث المنشور أدناه هو من لدن كاتبه علي الوردي.

وقبل الوعاظ كان كتاب الوردي الإشكالي أيضاً "خواطر اللاشعور" (1952)، وقبلهما قدم محاضرة تحت عنوان "شخصية الفرد العراقي" (1951) ببغداد، وأصدرها كُتيباً مهماً كشف فيه ازدواجية الشخصية العراقية، وهي ليست بعيدة بمكان، على الرغم من خصوصيتها، عن بواطن الشخصية العربية والشرقية عموماً، حيث التزاوج غير الموفق بين البداوة والحضارة.

وله أيضاً "مهزلة العقل البشري" (1955)، ومن بعده "أسطورة الأدب الرفيع" (1957)، و"الأحلام بين العلم والعقيدة" (1959)، و"منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته" (1962)، و"دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" (1965). وبهذا يكون عقدا الخمسينات والستينات أوج نشاط باحثنا وعطائه.

إلا أن أهم كتبه، والذي وصفه بمشروع العمر، هو "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث" (1969 - 1979)، عمل فيه لعشر سنوات، وأصدره بالتوالي في ستة أجزاء، والجزءان الخامس والسادس

بأربعة أقسام، ففي هذا الكتاب، بدأ بالظاهرة الاجتماعية العراقية من الصراع العثماني الإيراني، وأفرد الجزء السادس/القسم الثاني لتأسيس المملكة العربية السعودية، وما يتعلق من ذلك بموضوع بحثه. ونبش في الجزء الأول ظهور التشيع الصفوي، وما أدخله على التشيع عموماً، وهي المادة التي بين يدي القارئ بعد هذه المقدمة.

نلاحظ، في هذا الفصل الذي بين أيدينا: "الدولة الصفوية والتشيع" جرأة الباحث، وعلميته من دون مؤثرات، فكما قدمنا، نشأ الوردي وتربى في أجواء ما فرضه الصفويون على التشيع، ويسمع لسنوات طوال الأذان حسب الصيغة الصفوية، وكل ما كان من رواسب تلك الحقبة ببغداد، وعلى وجه التحديد مدينة الكاظمية الدينية الشيعية قاطبة، عندما صار العراق ولعقود تحت السيطرة الصفوية.

عموماً، يمتاز أسلوب علي الوردي بالسلاسة والوضوح، وهو أكثر الكُتاب قراءة، لأنه يُقرأ على المستويات كافة، وامتاز بتنوع المصادر، من الكتب والوثائق إلى الشارع والمقهى والسوق، إلا أن من العيوب التي قد لا يلحظها إلا القليل من الباحثين هو اعتماده الرواية التاريخية في بحثه الاجتماعي من دون تدقيق، حتى أن -ولكثرة استنباطه لتحليلاته الاجتماعية من دفائن التاريخ- هناك مَنْ عده مؤرخاً، وهو ليس كذلك، ولربَّما سيجيب لو سُئل عن ذلك بأنه ليس مختصاً في التاريخ ولا هو بالمحقق.

وكثيراً ما يأخذ الوردي الرواية على ذمة المؤرخ، من دون مقابلتها وفحصها، ومثال على ذلك شاع عن طريقه -وتبعه باحثون عديدون- أن المذهب الحنفي انتشر واعتمد في الزمن العثماني لإجازة أبي حنيفة (ت 150هـ) الإمامة بغير قريش، والحقيقة غير ذلك، إنما العثمانيون، كقبائل تركية، كانوا أحنافاً، قبل خلافتهم.

لكن هذا لايقلل من شأن الدكتور علي الوردي عالم الاجتماع، المتجرد من عاطفة أو هاجس ديني أو قومي، وبهذا المعنى أتت كتابته عن الصفوية خالصة للحقيقية، أعطى ما لملوكها من سيئات وما لهم من حسنات، من دون مجاملة لمدينته أو مذهبه ولا توجس من اتهام وطعن، كما سنلاحظ في قراءتنا للنص في الصفحات التالية.

ونشير في ختام هذه المقدمة إلى أن الحواشي المشار إليها بالعلامة(*) هي توضيح من المركز، أما تلك المشار إليها بالأرقام، فهي من متن النص الأصلي.

كان لظهور الدولة الصفوية في إيران تأثير كبير جداً من النواحي السياسية والاجتماعية والدينية، ولم يقتصر أثرها على إيران وحدها، بل تعداها إلى العراق وتركيا وأفغانستان والهند. والواقع أننا لا نستطيع أن نفهم تاريخ العراق وطبيعة مجتمعه فهماً عميقاً، ما لم ندرس الدولة الصفوية بشيء من الإسهاب. وسأحاول في هذا الفصل دراسة جانب من الدولة الصفوية، أعتبره ذا صلة وثيقة بالمجتمع العراقي، هو الجانب

المذهبي. ومما يؤسف له أن هذا الجانب لم يلق عناية كافية من الباحثين، على الرغم من أهميته التاريخية والاجتماعية.

مؤسس الدولة

مؤسس الدولة الصفوية هو الشاه إسماعيل، وهو الذي فرض التشيع الاثني عشري على الإيرانيين قسراً، وجعله المذهب الرسمي للحكومة الإيرانية. ويعطينا الأستاذ براون(*) وصفاً رائعاً لشخصية هذا الرجل، نقلاً عن بعض الرحالة والتجار الأوروبيين الذين شاهدوه، فهو كان -كما يبدو من أقوال هؤلاء- يجمع النقائض، إذ هو من جهة كان قاسياً متعطشاً للدماء إلى حد يكاد لا يصدق، بينما كان من الجهة الأخرى وسيماً، ذا أخلاق رقيقة، محبوباً من قبل جنوده إلى درجة العبادة، حتى أنهم كانوا يرمون بأنفسهم إلى ساحة الحرب من غير دروع، مؤمنين بأنه يحميهم من الخطر عند القتال[1].

يخيل لي أن الشاه إسماعيل كان من أولئك الرجال الذين يملكون مواهب نادرة -سلبية وإيجابية معا- وهم مؤمنون أن القدر هيأهم للقيام

(*) إدوارد براون، مستشرق ومؤرخ وطبيب انجليزي، ولد في ستوت هيل سنة 1862، وهو نجل المستشرق المعروف جيب، كان أستاذاً بكمبريدج، وله العديد من الدراسات والكتب حول التاريخ الإسلامي في فارس وإيران، وهو مؤسس كلية الدراسات الشرقية في كمبريدج. عاش بتركيا وإيران، وله مؤلفات باللغة الفارسية، وقد اشتهر خصيصاً بتوثيقه لتاريخ الحركتين البابية والبهائية، توفي 1926. راجع عنه للمزيد: نجيب العقيقي، موسوعة المستشرقين. راجع قاموس أكسفورد:

Oxford Dictionary of National Biography, Oxford University Press, 2004.

(1) Edward Browne, A Literary History of Persia, Cambridge 1953, vol. 4, p22-23

بمهمة ما. والظاهر أنه حين قام بفرض التشيع على الإيرانيين كان واثقاً بأنه مكلف بذلك من قبل قوة روحية عليا. إنه على أي حال كان معتقداً بأن هاتفاً غيبياً يدفعه ويرشده في أعماله. ولا ننسى أنه كان رجلاً صوفياً، ومن شأن المتصوفة بوجه عام أنهم يؤمنون بـ"الكشف" -أي الإلهام الغيبي- والمعروف عنه أنه كان يعلن لمريديه أنه لا يتحرك إلا بمقتضى أوامر الأئمة الاثني عشر، وأنه لذلك معصوم، وليس بينه وبين المهدي فاصل[2].

ولعلي لا أعدو الصواب إذا قلت إن جميع الأمور المستحدثة التي أدخلها إسماعيل في التشيع الإيراني، قد انبعثت من هذه النزعة الصوفية فيه، إذ لم يكن في مقدور أحد أن يفرض مثل تلك الأمور على الناس دفعة واحدة دون أن يستند فيها على "الكشف"، ودعوى الإلهام الروحي.

يُروى عن الشاه إسماعيل أنه عندما فتح تبريز في بداية أمره، وأراد فرض التشيع على أهلها بالقوة، نصحه بعض مستشاريه من رجال الدين أن لا يفعل ذلك، بحجة أن ثلثي سكان المدينة من أهل السنّة، وأنهم لا يصبرون على سب الخلفاء الثلاثة من على المنابر، ولكنه أجابهم قائلا: "أنا مكلف بذلك، وإن الله والأئمة المعصومين معي، وإني لا أخاف أحداً، فإذا وجدت من الناس كلمة اعتراض شهرت سيفي بعون الله فيهم، فلا أبقي منهم أحداً حياً"[3].

---

(2) كامل مصطفى الشيبي، الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري، بغداد 1966، ص413.

(3) Edward Browne, op. cit. vol 4, p53-54

ويمكن القول على أي حال إن الشاه إسماعيل أساء إلى التشيع من حيث أراد نفعه، أو لعله أساء إلى التشيع ونفعه في آن واحد. فهو من ناحية قد زاد من تعداد الشيعة، إذ أدخل فيهم الكثير من الإيرانيين، ولكنه من الناحية الأخرى أدخل في التشيع أموراً أضرت به وشوهت سمعته، أضف إلى ذلك أنه جعل التشيع مذهباً حكومياً، وبذا أضعف فيه نزعته الشعبية القديمة.

وسائل نشر المذهب

اتخذ الشاه إسماعيل سب الخلفاء الثلاثة وسيلة لامتحان الإيرانيين، فمن يسمع السب منهم يجب عليه أن يهتف قائلاً "بيش باد، كم ما باد"، وهذه العبارة تعني في اللغة الآذربيجانية أن السامع يوافق على السب ويطلب المزيد منه، أما إذا امتنع السامع عن النطق بهذه العبارة قُطعت رقبته حالاً. وقد أمر الشاه بأن يعلن السب في الشوارع والأسواق وعلى المنابر، منذراً المعاندين بقطع رقابهم.

تروى في هذا الصدد قصة طريفة، تشبه من بعض الوجوه قصة غاليليو الذي سيق للمحاكمة في إيطاليا لأنه قال بدوران الأرض حول الشمس، ولم ينج من العقوبة إلا بإنكاره هذا القول، فقد فعل مثل هذا أحد علماء السنّة المعروفين، وهو شمس الدين الخفري، إذ كان في شيراز عند مجيئ الشاه إسماعيل إليها، وحين تقدم بين يدي الشاه من أجل امتحانه في سب الخلفاء الثلاثة، انبرى يلعنهم لعناً شنيعاً، فنجا بذلك من الذبح،

ولما خرج من عند الشاه عاتبه أصحابه وقالوا له: "كيف ارتددت عن دينك ولعنت أئمتك الثلاثة؟!"، فأجابهم: "... لأجل هؤلاء الأعراب الثلاثة... أُقتل أنا مع ما أنا عليه من الفضل والكمال؟!"[4].

ولم يكتف الشاه إسماعيل بالإرهاب وحده في سبيل نشر التشيع، بل عمد كذلك إلى اتخاذ وسيلة أخرى، هي وسيلة الدعاية والإقناع النفسي، فقد أمر بتنظيم الاحتفال بذكرى مقتل الحسين على النحو الذي يتبع الآن[5]، وهذا الاحتفال كان قد بدأ به البويهيون في بغداد في القرن الرابع الهجري، ولكنه أهمل وتضاءل شأنه من بعدهم. ثم جاء الشاه إسماعيل أخيراً فطوّره وأضاف إليه "مجالس التعزية"[6]، بحيث جعله قوي الأثر في القلوب. وقد يصح القول إنه كان من أهم العوامل في نشر التشيع في إيران، لأن ما فيه من مظاهر الحزن والبكاء، وما يصاحبه من كثرة الأعلام ودق الطبول وغيرهما، يؤدي إلى تغلغل العقيدة في أعماق النفس، والضرب على أوتارها الكامنه[7].

وأمر الشاه إسماعيل كذلك بإدخال "الشهادة الثالثة" في الأذان، أي عبارة "أشهد أن عليّاً ولي الله"، وكانت هذه الشهادة قد أدخلها بعض الغلاة في الأذان منذ القرن الثالث الهجري، غير أن الشيعة المعتدلين

---

(4) كامل مصطفى الشيبي، التقية، مجلة الإيمان في عدديها الخامس والسادس من السنة الثانية 1965، ص60.

(5) كامل مصطفى الشيبي، الفكر الشيعي، ص415.

(6) المظنون أن تمثيل مأساة كربلاء، وهو المعروف الآن باسم "الشبية"، لم ينشأ في العهد الصفوي، بل هو نشأ بعدئذ في العهد القاجاري.

(7) أنظر حول هذا الموضوع فيما يخص العراق كتاب: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، للمؤلف، بغداد 1965، الفصل التاسع.

استنكروا ذلك في حينه، ولم يقبلوا به، أما إسماعيل فقد فرض الشهادة الثالثة فرضاً ولم يكترث بأحد، ولا تزال هذه الشهادة موضع أخذ ورد عند الشيعة حتى الآن.

الشيخ علي الكركي

توفي الشاه إسماعيل في عام 1524 ولم يكن قد تجاوز الثامنة والثلاثين من عمره، فخلفه على العرش ابنه الشاه طهماسب، وكان هذا يختلف في تكوين شخصيته عن أبيه اختلافاً واضحاً. فهو قد ورث الملك وحصل عليه جاهزاً، أما أبوه فكان مؤسس الملك وقائد الجيوش، وكان بالإضافة إلى ذلك واثقاً من أنه رئيس الدين والدولة معاً، فلا يحتاج إلى من يرشده في دينه أو دنياه.

لم يكد طهماسب يتولى الحكم حتى أدرك أنه لا يستطيع أن يكون مثل أبيه، رئيساً للدين والدولة في آن واحد. يقول الدكتور كامل الشيبي: "إن الشاه طهماسب رأى أن الحكمة تقضي أن يترك أمر بث التشيع بيد الاختصاصيين من الفقهاء، فاستدعى إليه الشيخ علي بن عبد العالي الكركي، لينهض بأعباء هذه المهمة"[8].

ينتسب الشيخ علي الكركي إلى قرية "كرك نوح" من قرى بعلبك، وكان عند استدعاء الشاه له يسكن النجف، ولما وصل إلى إيران استقبله الشاه استقبالاً منقطع النظير، ثم أصدر "فرماناً" إلى جميع أنحاء المملكة،

(8) كامل مصطفى الشيبي، الفكر الشيعي، ص416.

ذكر فيه أن الشيخ علي هو صاحب الدولة الحقيقي، باعتباره نائب الإمام الغائب "صاحب الزمان"، وأن على الجميع امتثال أوامره، "فمعزول الشيخ لا يُستخدم، ومنصوبه لا يُعزل"، ورتب الشاه له مرتبات ضخمة، ومنحه قرى زراعية ليأخذ خراجها.

أصبح الشيخ علي الكركي هو الحاكم الفعلي في عهد الشاه طهماسب -فيما يخص الشؤون الدينية على الأقل- وقد وصفه أحد المؤرخين الإيرانيين قائلاً: "ولم يسع أحد بعد الخواجة نصير الدين الطوسي مثل ما سعى الشيخ علي الكركي، في إعلاء أعلام المذهب الجعفري، وترويج دين الحق الاثني عشري، وكان له في منع الفجرة والفسقة وزجرهم، وقلع قوانين المبتدعة بأسرهم، وفي إزالة الفجور والمنكرات، وإراقة الخمور والمسكرات، وإجراء الحدود والتعزيرات، وإقامة الفرائض والواجبات، والمحافظة على أوقات الجمعة والجماعات، وبيان مسائل الصلوات والعبادات، وتعاهد أحوال الأئمة والمؤذنين، ودفع شرور الظالمين والمفسدين، وزجر المرتكبين للفسوق والعصيان، وردع المتبعين لخطوات الشيطان، مساع بليغة ومراقبة شديدة. وكان يرغّب عامة الناس في تعلم شرائع الدين ومراسم الإسلام، ويحثهم على ذلك بطريق الالتزام... وكان الشيخ علي الكركي لا يركب إلا ويمشي رجل في ركابه يجاهر بشعار التشيع، وقد أصدر إلى أنحاء إيران أوامر تتضمن قوانين العدل وكيفية سلوك الولاة مع الرعية في أخذ الخراج وكميته ومقدار مدته. وأمر أن يقرر في كل بلد وقرية إماماً يصلي بالناس ويعلمهم شرائع الدين..."(9).

---

(9) محسن الأمين، أعيان الشيعة، بيروت 1958، ج41، ص178-176.

النزاع بين الكركي والقطيفي

إن هذا المسلك الذي سلكه الشيخ علي الكركي في دخوله في خدمة الدولة الصفوية، وتوليه المنصب الكبير فيها، أثار عليه نقمة الكثيرين من علماء الشيعة المعاصرين، فهؤلاء كانوا يعتقدون على طريقة أسلافهم القدامى أن أية حكومة لا يتولاها الإمام هي ظالمة، يحرم الدخول في خدمتها، وأن الخراج الذي تجبيه تلك الحكومة من الناس يعتبر غصباً لا يجوز للفقيه أن يأخذ منه شيئاً، استناداً إلى ما جاء في القرآن: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ (هود: 113).

وكان على رأس المعارضين للكركي فقيه يوازيه في العلم والمكانة، هو الشيخ إبراهيم القطيفي، وكان من سكنة النجف أيضاً. وقد بدأ النزاع بينهما منذ وصول رسول الشاه إلى النجف لاستدعاء الشيخ الكركي، إذ كان مع الرسول هدية لكل منهما، فقبل الكركي هدية الشاه بينما رفضها القطيفي. وقد انتقد الكركي عمل زميله في رفض الهدية، قائلاً له: "أخطأت في ردها، وارتكبت إما حراماً أو مكروهاً بتركك التأسي بالإمام الحسن السبط في قبوله جوائز معاوية، مع أنك لست أعلى مرتبة من الإمام، ولا السلطان أسوأ حالاً من معاوية"[10].

وقد اشتد النزاع بين الرجلين بعد قبول الكركي دعوة الشاه ودخوله في خدمة الدولة، ومما زاد في حدة النزاع أن الكركي وافق على

---

(10) محسن الأمين، مرجع سابق، دمشق 1936، ج5، ص203.

جميع الأمور التي استحدثتها الدولة الصفوية، وكتب فيها الرسائل المؤيدة، فرد عليه القطيفي برسالة مضادة.

أهم الرسائل التي كتبها الشيخ علي الكركي هي تلك الرسالة التي تدور حول موضوع الخراج، وكان عنوانها: "قاطعة اللجاج في حل الخراج"، وقد رد عليها القطيفي برسالة عنوانها: "السراج الوهاج لدفع عجاج قاطعة اللجاج". وجاء في مقدمة رسالة القطيفي خمس نقاط:

الأولى: في حرمة كتمان العلم والفقه.

الثانية: في ذم أتباع السلطان من العلماء.

الثالثة: في مدح من أعان طالب العلم وذم من آذاه.

الرابعة: في مدح العالم العامل وذم التارك للعمل.

الخامسة: في الحيل الشرعية.

والظاهر أن هذه النقاط الخمس كلها موجهة نحو انتقاد الكركي وما ينسب إليه من أعمال في خدمة الدولة. وقد أخذ القطيفي في رسالته يشجب الخراج ويعده ظلماً وغصباً، وأشار إلى أن الشاه كان قد طلب منه مثلما طلب من الكركي في العمل على ترويج الدين، وإظهار فضل التشيع، ولكنه رفض ذلك لأن من رأيه أنه إذا أخذ الحرام، وترك أمر الدين، فكيف يكون أهلاً لترويج الدين[11].

يبدو أن الشيخ علي الكركي أفرط في ترويج مستحدثات الدولة الصفوية، بحيث وافق على أمور لا يجوز في الشرع الموافقة عليها -كلها أو بعضها- ولعل هذا هو الذي جعل الخصوم يطلقون على الكركي لقب

---

(11) المرجع السابق، ج41، ص186.

"مخترع الشيعة". وكانت من جملة رسائله رسالة في تجويز السب عنوانها "نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت"، وأخرى في تجويز السجود للعبد، وثالثة في تجويز السجود على التربة الحسينية[12]. وقد كتب الكركي رسائل في مواضيع أخرى، فكتب القطيفي في كل واحد من تلك المواضيع يرد عليه. ومما يلفت النظر أن الكركي كتب رسالة في وجوب صلاة الجمعة، مع العلم أن الشيعة كانوا قد أبطلوها منذ زمن بعيد، حيث اشترطوا لها وجود السلطان العادل[13]، والمظنون أن الكركي إنما أفتى بوجوبها لاعتقاده بتوافر العدالة في حكومة الشاه.

إن هذا الجدال الشديد الذي نشب بين الكركي والقطيفي أدى إلى انقسام علماء الشيعة في حينه إلى فريقين متنازعين، ولكن هذا الانقسام لم يدم طويلا، حيث انتهى أخيراً بانتصار الكركي وأتباعه. وليس من الصعب اكتشاف السبب الذي أدى إلى هذا الانتصار إذ هو متوقع ومنسجم مع الحياة الاجتماعية، فالدولة بما لديها من أموال ومناصب مغرية، قادرة أن تقوي جانب العلماء الذين يؤيدونها، وتضعف جانب الذين يعارضونها، وقد رأينا الدول القديمة –على مختلف عقائدها ومنازعها– تفعل مثل ما فعلته الدولة الصفوية وتنجح فيه نجاحاً لا يستهان به.

الهجرة من جبل عامل

في الوقت الذي ظهرت الدولة الصفوية في إيران كان جبل عامل يزخر بنهضة علمية نادرة المثال، وكان فيه –على ضيق رقعته وفقره– عدد

---

(12) كامل مصطفى، الفكر الشيعي، مرجع سابق، ص416-414.

(13) محسن الأمين، مرجع سابق، ج5، ص203.

من المجتهدين يزيد على ما كان في أية منطقة شيعية أخرى[14]، وكانت هذه النهضة قد بدأت منذ القرن الرابع عشر الميلادي -أي القرن الثامن الهجري- وأخذت تنمو بمرور الأيام[15].

من الممكن القول إن دخول جبل عامل في حوزة الدولة العثمانية على عهد السلطان سليم ياوز، قد أدى إلى وقوع شيء من الاضطهاد -قليل أو كثير- على الشيعة فيه، وقد جرى ذلك في الوقت نفسه الذي كانت الدولة الصفوية تجتذب علماء الشيعة وتغدق عليهم الأموال والمناصب المغرية، وهذا لابد أن يؤدي إلى هجرة العلماء العاملين إلى إيران على نطاق واسع. يقول الدكتور كامل الشيبي: "إن موجة العامليين انصبت في إيران على صورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ التشيع"[16].

كان من أشهر العامليين الذين وفدوا إلى إيران، بعد الكركي، هو الشيخ حسين بن عبد الصمد، وقد حل محل الكركي في منصب "شيخ الإسلام". وسيرة هذا الرجل تدل على أنه كان ذا مزاج يختلف عن مزاج سلفه، فهو لم يستسغ الترف والجاه كما استساغهما الكركي، وأخذ يتذكر ما كان عليه أساتذته في جبل عامل من شظف العيش والكدح في سبيل الرزق، وربما صار من جراء ذلك يعاني صراعاً نفسياً، ولذا نراه في أواخر

---

(14) الواقع أن ظهور مثل تلك النهضة العلمية في بقعة منعزلة كجبل عامل أمر يلفت النظر ويدعو إلى التساؤل، فما هي العوامل التي ساعدت على ذلك؟ إن هذا موضوع اجتماعي جدير بأن يبحث فيه.

(15) محمد كاظم مكي، الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل، بيروت 1963، ص68.

(16) كامل مصطفى الشيبي، الفكر الشيعي، مرجع سابق، ص417.

أيامه يتجه نحو التصوف والزهد، ويعتزل المنصب الكبير الذي عهد به إليه. ذهب إلى الحج، ومن هناك آثر السكنى في البحرين، ثم كتب إلى ابنه الشيخ محمد "البهائي" يحرضه على ترك إيران وصحبة السلطان، وكان من جملة ما قاله له: "إذا كنت تريد الدنيا فاذهب إلى الهند، وإذا كنت تريد الآخرة فاذهب إلى البحرين، وإن كنت لا تريد الدنيا ولا الآخرة فتوطن في بلاد العجم". وقد توفي الشيخ حسين أخيراً في البحرين، وقبره لا يزال معروفاً في قرية المصلى[17] يزوره الناس ويتبركون به.

الشاه عباس الكبير

وصلت الدولة الصفوية قمة مجدها في عهد الشاه عباس، الذي يلقب بـ"الكبير". وفي عصر هذا الشاه لم تعد إيران في حاجة إلى استجلاب العلماء من جبل عامل أو غيره، إذ هي أصبحت قادرة على إنتاج من تحتاج إليه من العلماء.

تولى الشاه عباس الحكم في عام 1588 وهو لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره، وتُروى نادرة طريفة بمناسبة تسلمه العرش، تدل على العقلية السائدة في ذلك الحين، خلاصتها أن المنجمين نصحوا الشاه بأنه يجب أن يتخلى عن العرش لمدة قصيرة لأن النجوم تشير إلى أن خطراً شديداً سيحيق بصاحب العرش خلال تلك المدة، فاستجاب الشاه

(17) محسن الأمين، مرجع سابق، دمشق 1948، ج26، ص247-226.

لنصحهم، وتنازل عن العرش مؤقتاً، حيث نصب مكانه رجلاً غير مسلم اسمه يوسف، وقد بقي هذا المسكين على العرش ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أوعز الشاه بقتله، واستعاد العرش منه، وعند ذلك قال المنجمون للشاه إنه سيحظى بمجد طويل عظيم[18].

ويبدو أن هذه النبوءة التنجيمية -على الرغم من طبيعتها الخرافية- كان لها أثر غير قليل في تكوين شخصية الشاه، إذ هي أنتجت فيه إيحاءً نفسياً قوياً جعله واثقاً من نفسه، ومن أنه سينال مجداً عظيماً حسب ما تنبأ به المنجمون، ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن كثيراً من الأمور التي نعدّها من الخرافات، ونستهين بها، قد يكون لها تأثير بالغ الأهمية، في الفرد أو المجتمع.

الواقع أن الدولة الصفوية كانت -عندما تسلم الشاه عباس زمام الأمور فيها- مهددة بالخطر الماحق من الحدود الشرقية والغربية معاً. فبالإضافة إلى الخطر الآتي إليها من جهة الدولة العثمانية، كان هناك خطر آخر آتٍ من جهة دولة الأوزبك الواقعة على الحدود الشرقية، وقد استطاع الأوزبك إذ ذاك أن يفتحوا بلدة هرات بعد حصار دام تسعة أشهر، ثم فتحوا طوس -وهي البلدة التي تضم مرقد الإمام علي بن موسى الرضا- فذبحوا الكثير من سكانها، ونهبوا كنوز المرقد الرضوي، وكان من جملة ما نهبوه قطعة من الماس بقدر بيضة الدجاجة، ثم استمروا في

Perey Sykes, A History of Persia, London 1958, Vol 2, P.174-175 (18)

الفتح حتى احتلوا نيسابور وسبزوار وإسفرايين وطبس وغيرها من بلدان خراسان.

أدرك الشاه عباس أنه غير قادر أن يحارب في جبهتين في وقت واحد، فآثر أن يصالح العثمانيين لكي يتفرغ لمجابهة الأوزبك، وقد تم له ما أراد في عام 1590، حيث عقد معاهدة مع الدولة العثمانية، تعهد فيها أن يسلم لها مناطق أذربيجان وجورجيا وقسماً من لورستان، وأن يمنع رعاياه من سب الخلفاء الثلاثة[19].

ثم توجه الشاه نحو الأوزبك، واستطاع أن ينزل بهم هزيمة كبيرة في عام 1597، وتمكن بعدئذ من استرجاع المناطق المفقودة، ولاسيما بلدة طوس المقدسة. ومنذ ذلك الحين بدأ عصر جديد في إيران، هو الذي يعده الإيرانيون "العصر الذهبي" من تاريخهم الحديث.

جهود عباس العمرانية

أولع الشاه عباس بالعمران ولعاً عظيماً، وليس هنا مجال التبسط في ذكر جهوده العمرانية، إنما نذكر منها أمرين لأهميتهما الاجتماعية: أحدهما أنه نقل العاصمة من قزوين إلى أصفهان، وأخذ يبني فيها العمارات الفخمة والمساجد الرائعة، التي هي اليوم من أعظم ما يقصده السواح في إيران. وقد أصبحت أصفهان من جراء ذلك مضرب المثل في

Carl Brockelman, History of Islamic Peoples, Cornwall 1947, p.325 (19)

الازدهار العمراني والحضاري، حتى قيل "أصفهان نصف جهان"، أي أصفهان نصف الدنيا.

أما الأمر الثاني فهو اهتمام الشاه عباس بتعمير مرقد الرضا في طوس، وطلاء قبته بالذهب. وقد بدأ ذلك منذ عام 1598، وفي عام 1601 استطاع أن يسترجع قطعة الماس المنهوبة، فأرسلها بفتوى من العلماء إلى الروم من أجل بيعها، ثم اشترى بثمنها أراضي وأملاكاً وقفها على المرقد. وفي السنة التالية مشى الشاه على قدميه من أصفهان حتى طوس –وهي مسافة تبلغ ثمانمائة ميل– بغية التبرك بزيارة المرقد. وعند وصوله أخذ يقص بيده فتائل الشموع الكثيرة التي تنير المرقد، ويروى أن الشيخ "البهائي" كان حاضراً، فأنشد أبياتاً من الشعر قال فيها ما معناه: إن الملائكة نزلوا من السماء وأخذوا يتهافتون حول الشموع، فيا أيها الرجل الذي يقص بمقصه فتائل الشموع إحذر أن تقص جناح جبرائيل[20].

وأخذ الشاه عباس بعدئذ يشجع الإيرانيين على زيارة الرضا بكل وسيلة ممكنة، ومما قام به في هذا الشأن أنه عبَّد الطرق في مختلف أنحاء إيران، وبنى فيها القناطر والخانات بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ إيران. وقيل إن عدد الخانات التي بناها بلغ ألف خان، يتسع الواحد منها لمئات المسافرين مع دوابهم وحمولتهم، ولم يكن يؤخذ أجر على إيوائهم فيها، وما زالت آثارها باقية حتى اليوم[21].

---

(20) Perey Sykes, Op. Cit. Vol. 2, p. 181

(21) محمد جواد مغنية، دول الشيعة في التاريخ، النجف، 1965، ص133-132.

يعزو بعض الكتاب اهتمام الشاه عباس بزيارة الرضا إلى أنه كان يريد أن يجعلها بديلاً عن الحج لدى الإيرانيين، ومن هؤلاء الكتاب الرحالة المصري محمد ثابت، إذ قال عن الشاه عباس: إنه "صرف قومه عن زيارة مكة لكراهيتهم للعرب، ولكي يوفر على قومه ما كانوا ينفقون من أموال طائلة في بلاد يكرهونها ..."[22].

إن هذا -في نظري- رأي لا يخلو من خطأ في التفسير، فالشاه عباس في الواقع لم يكن راغباً في تحويل الإيرانيين عن الحج، وهو بالأحرى لم يكن قادراً على ذلك، بل كان همه منصباً على تحويلهم عن زيارة العتبات المقدسة الموجودة في العراق تحت سيطرة أعدائه العثمانيين، ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الزوار الإيرانيين الذين كانوا يذهبون لزيارة العتبات المقدسة في العهد العثماني، كانوا يعانون الشيء الكثير من الأذى، على أيدي الأطفال في أزقة بغداد، وعلى أيدي الموظفين في المخافر والدوائر، وكانوا كثيراً ما يتقدمون عند عودتهم بالشكوى إلى الشاه مما نابهم من الأذى في العراق.

مهما يكن الحال، فقد صار مرقد الرضا في طوس -منذ عهد الشاه عباس- من أهم معالم المجتمع الإيراني، وقد توالت عليه التعميرات والإضافات من غير انقطاع حتى يومنا هذا، وليس في مقدورنا إعطاء صورة وافية عما فيه الآن من أبنية وزخارف فنية وكنوز وذهب، وما له من أملاك وأوقاف، فذلك أمر يجل عن الوصف. ويعتبر المرقد اليوم أغنى

---

(22) محمد ثابت، جولة في ربوع الشرق الأدنى، القاهرة 1952، ص161.

جميع العتبات المقدسة على الإطلاق، وأزخرها بالفن من حيث العمارة والزينة والعلائق الثمينة[23].

ويزور المشهد سنوياً عدد كبير من الزوار، وهم الآن يقدرون بمليون زائر يقصدونه من أنحاء إيران ومن العراق ومختلف بلاد الشيعة، وفي إيران يطلق على من أتم زيارة الرضا لقب "مشتي"-نسبة إلى مشهد (اسم المكان المدفون فيه الرضا)- ويضاف هذا اللقب إلى اسمه فيقال "مشتى فلان" كمثل ما يضاف لقب "كبلي" -أي كربلائي (نسبة إلى كربلاء)- على اسم من أتم زيارة الحسين.

فتح بغداد

في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، جاء إلى إيران من بريطانيا السر أنطوني شيرلي وأخوه السر روبرت، وكان في حاشيتهما رجل خبير بصب المدافع، فانتهز الشاه عباس الفرصة واستعان بالرجل لتجهيز جيشه بالمدافع القادرة على مجابهة المدافع العثمانية، التي كانت تعد في ذلك القرن أعظم مدافع العالم على الإطلاق.

وفي عام 1602 بدأ الشاه يشن غاراته على التخوم العثمانية، وبعد سنتين استرجع مدينة تبريز بقوة مدافعه الجديدة، ثم صار من بعد

---

(23) جعفر الخليلي، موسوعة العتبات المقدسة-قسم خراسان، بيروت 1968، ص258.

ذلك يكسب النصر تلو النصر، حتى تمكن عام 1623 من فتح بغداد، بعد حصار دام ثلاثة أشهر، أكل الناس فيها الأطفال، وبلغت قيمة الحمار ألف أقجه[24] (وحدة نقدية فضية مغولية وظلت مستعملة ومعناها الضاربة إلى البياض ووزنها أربعة غرامات فضة).

والظاهر أن الشاه عباس فعل ببغداد عند فتحها مثلما فعله الشاه إسماعيل قبله، وربما زاد عليه، فقد هدم مرقدي أبي حنيفة والشيخ عبد القادر، ثم وزع دفاتر لتسجيل أسماء أهل السنّة من سكان بغداد بقصد القضاء عليهم جميعاً، ولو لم يتدخل السيد دراج كليدار الحسين لنفذ الشاه ما أراد، فقد كان هذا السيد ذا جاه لدى الشاه واستطاع أن يشفع للكثيرين من أهل السنَّة، وسجل أسماءهم في دفتره باعتبارهم من "محبي أهل العبا" -أي من الشيعة- فأنقذهم من القتل[25].

زار الشاه عباس -بعد فتح بغداد- المراقد المقدسة في الكاظمية وسامراء وكربلاء والنجف، وبذل فيها من الأموال تعميراً وهدايا، وقد ركز جهوده العمرانية على النجف بوجه خاص، فبنى فيها الأواوين والخانات لراحة الزوار، وأمر بفتح قناة تحت الأرض لجلب الماء إلى البلدة، وانضم عسكره إلى العمال في الحفر، حتى أوصلوا الماء إلى مكان قريب من البلدة، وبنى هناك "بركة" في سرداب ينزل فيها الناس على درجات ليستقوا منها[26].

---

(24) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد 1949، ج4 ص177.

(25) المصدر السابق، ص180.

(26) جعفر محبوبة، ماضي النجف وحاضره، النجف 1958، ج1 ص193.

إن هذا الذي فعله الشاه عباس -من حيث كونه يهدم ويبني، ويقسو ويرحم في آن واحد- ليس بالأمر العجيب، إذ هو ما يفعله عادة أكثر الناس على اختلاف طبقاتهم، لا فرق فيه بين رجل الشارع والملك، ولكن أعمال الملك قد تكون مشهورة يعرفها الجمهور ويبالغون فيها، بينما أعمال رجل الشارع لا يعرفها سوى نفر معدود من الناس، وهي قد تُنسى بعد حين. إن الذي يجب أن يحسن إلى الناس جميعاً من غير تفريق ليس سوى إنسان شاذ.

يصف السنّة الشاه عباس كأنه غول لا يصدر منه غير الشر والأذى، بينما يصفه الشيعة كأنه قديس دأبه العمران والعدل وطلب الحق، ومشكلة هذين الفريقين تشبه من بعض الوجوه مشكلة المرأتين اللتين تشاجرتا، وكانت كل واحدة منهما تركز نظرها على الأذى الذي أصاب ولدها، وتبالغ فيه، من غير أن تلتفت إلى مبلغ الأذى الذي أصاب ولد الأخرى.

يُحكى أن فارسين من فرسان القرون الوسطى التقيا في طريق عند نصب قديم، فاختلفا في لونه: أحدهما يرى أنه أصفر، والآخر يرى أنه أزرق، والواقع أن النصب كان أصفر وأزرق في آن واحد، حيث كان مصبوغاً في أحد وجهيه بلون يخالف لون الوجه الآخر. وأخذ الفارسان يتنازعان قبل أن يتحققا من حقيقة النصب، وكان كل منهما يتعجب من مخالفة الآخر لرأيه ويعتقد أنه مغالط أو معاند. إن النزاع بينهما أذهلهما عن اكتشاف الحقيقة، وكلما اشتد النزاع بينهما، ازداد كل منهما في تعصبه لرأيه وفي عدائه لرأي خصمه.

الشيخ البهائي

نبغ في عهد الدولة الصفوية عدد من فطاحل العلماء والمفكرين، أشهرهم اثنان هما: الشيخ محمد بن الشيخ حسين العاملي الملقب بـ"البهائي"، والملا محمد باقر بن الملا محمد تقي الملقب بـ"المجلسي".

عاش البهائي في عصر الشاه عباس الكبير، وتولى مشيخة الإسلام، ونال لدى الشاه حظوة لم ينلها أحد غيره، والظاهر أن نفسه لم تكن مطمئنة إلى إقبال الدنيا عليه، وكأنه ورث شيئاً من نزعة الزهد والتصوف من أبيه الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي، فقد كتب في بعض كتبه يقول: إنه لو لم يأت والده إلى بلاد العجم، لما ابتلي هو بصحبة السلطان[27]، وكتب مرة أخرى يصف نفسه قائلا: "إنه لو لم يأت والدي، قدس الله روحه، من بلاد العرب، ويختلط بالملوك، لكنت من أتقى الناس وأعبدهم وأزهدهم، لكنه –طاب ثراه- أخرجني من تلك البلاد، وأقام في هذه الديار، فاختلطت بأهل الدنيا، واكتسبت أخلاقهم الرديئة، واتصفت بصفاتهم، ثم لم يحصل لي من الاختلاط بأهل الدنيا إلا القيل والقال، والنزاع والجدال، وآل الأمر أن تصدى لمعارضتي كل جاهل، وجسر على مباراتي كل خامل"[28].

كان البهائي موسوعياً كابن سينا وأمثاله من مشاهير المفكرين القدامى، الذين كانوا مطلعين على معظم العلوم والفنون الموجودة في

---

(27) محسن الأمين، مصدر سابق، ج26 ص235

(28) المصدر السابق، ج44 ص231.

زمانهم، وهذا أمر كان ممكناً في الأزمنة القديمة بخلاف زماننا هذا، ولكن البهائي يختلف عن ابن سينا بكونه اشتهر بالرياضيات والهندسة، بينما كان ابن سينا مشهوراً بالطب والفلسفة، وقد رويت عن البهائي أساطير حول براعته الرياضية والهندسية تشبه الأساطير التي رويت عن ابن سينا في الطب، ولا يزال العامة في إيران يتناقلون عن البهائي قصصاً لا تخلو من مبالغة أو خرافة.

سئم البهائي منصب "شيخ الإسلام"، لما كان يحف به من مكايدات ومؤامرات لا يتحملها المفكرون الكبار، وحنّت نفسه إلى حياة التصوف والرحلة في سبيل العلم على طريقة المسلمين الأوائل، فلبس لباس الدراويش، وأخذ يتجول في مختلف الأقطار الإسلامية كتركيا وبلاد الشام ومصر والحجاز، وسكن القدس حيناً من الزمن، كما سكن دمشق والقاهرة، وقيل إن رحلته استغرقت زهاء ثلاثين سنة، ونال إعجاب العلماء وثقتهم في كل بلد حل فيه، لأنه كان مخلصاً في طلب العلم، حر التفكير، لا يماري ولا يكابر.

ألّف البهائي خلال رحلته كتابه المشهور "الكشكول"، وقد استمد هذا الاسم من الكشكول الذي يحمله الدراويش، يضعون فيه ما يعطى إليهم من صدقات، وهو كتاب فريد من نوعه، وقد يشبه كشكول الدراويش من حيث كونه جامعاً للمعلومات من شتى الأنواع، ففيه يجد القارئ شذرات فلسفية وصوفية وأدبية وفقهية ورياضية وغيرها. وقد حاول بعض المؤلفين فيما بعد تقليد البهائي، فألفوا كتبا عديدة على نمط "الكشكول"، ولكنهم لم يصلوا إلى مستواه، وشتان بين المبدع والمقلد!

ومما يلفت النظر في أمر البهائي، أن أهل السُّنة يعتبرونه سنّياً، والشيعة يعتبرونه شيعياً، وقد راج كتابه "الكشكول" في مصر وإيران معاً، ثم طبع فيهما أخيراً، والملاحظ أن هناك فرقاً بين نسختيه الإيرانية والمصرية، إذ توجد في النسخة الإيرانية إضافات تلائم مزاج الدولة الصفوية والعقائد التي استحدثتها، ولا ندري هل كان ذلك من فعل المؤلف أم من فعل النُسّاخ؟!

نظرية البهائي في المعرفة

لعلَّ من المناسب -ونحن في صدد سيرة البهائي- أن نشير باختصار إلى نظرية له في المعرفة، تدل على حرية تفكيره وتسامحه الديني. وخلاصة النظرية حسبما رويت عنه في كتب ناقديه هي: "أن المكلف إذا بذل جهده في تحصيل الدليل، فليس عليه شيء إذا كان مخطئاً في اعتقاده، ولا يخلد في النار وإن كان بخلاف الحق"[29].

إن هذه النظرية ذات أهمية علمية غير قليلة، وإن كانت تبدو للناظر السطحي بسيطة، والواقع أنها تنسجم مع أحدث ما توصلت إليه الأبحاث النفسية والاجتماعية. والمظنون أن البهائي استمدها من تجواله الواسع بين الناس، ومخالطته لأصحاب العقائد المختلفة. ومن الممكن القول إن كل مفكر صادق النظر إذا اطلع على العقائد المختلفة يستطيع أن

---

(29) عبد الله نعمة، فلاسفة الشيعة، بيروت بدون تاريخ، ص406.

يكتشف فيها حقيقة واضحة، هي أن كل ذي عقيدة يؤمن بصحة عقيدته إيماناً قاطعاً لا شك فيه، وأنه مهما تأمل وفكر فلا يقدر أن يخرج بتفكيره عن الأدلة والقوالب المنطقية الملائمة لعقيدته، ومعنى هذا أن الإنسان لا يلام على أية عقيدة اكتسبها من محيطه الاجتماعي فنشأ عليها، إذ إن تلك العقيدة صحيحة في نظره كمثل ما تكون عقيدتنا صحيحة في نظرنا، فلو أننا نشأنا في محيطه لاعتقدنا بمثل عقيدته، وكذلك لو نشأ هو في محيطنا لاعتقد بمثل عقيدتنا.

خلاصة القول إن الإنسان في أكثر الأحيان لا يختار عقيدته بإرادته وتفكيره، بل يتلقاها من محيطه الاجتماعي جاهزة ثم يتصور أنها خير عقيدة أنزلت للناس، وهذه هي طبيعة الملايين من البشر!

ومما يجدر ذكره أن الجاحظ كان قد جاء بما يشبه هذه النظرية التي جاء بها البهائي[30]، ولكنها حوربت ثم ضاعت، ولم يبق منها إلا مقتطفات جزئية مما رواه المنتقدون لها. كان من رأي الجاحظ أن الشخص الأمي الذي يعيش في قرية نائية، أو محيط اجتماعي منعزل، نراه لا يعرف من العقائد غير العقيدة التي نشأ عليها، وهو إذاً لا يستطيع أن يفكر إلا في نطاق تلك العقيدة، أنه غير ملوم في ذلك ولا يعاقبه الله عليه، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ويستخلص الجاحظ من هذا أن الله لا يعاقب من الكفار إلا أولئك المعاندين الذين يدركون الحق ويحيدون عنه

(30) انظر حول نظرية الجاحظ هذه كتاب «منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته»، للمؤلف، القاهرة 1962، ص49-52.

حرصاً على جاه أو رئاسة أو نحو ذلك من الأسباب، أما الباقون منهم -وهم الذين يمثلون سواد الناس وأكثريتهم- فإن من الظلم عقابهم لأنهم لا يفهمون الحق إلا من خلال العادات والعقائد التي نشأوا عليها، "والله ليس بظلام للعبيد"[31]!

لا حاجة بنا إلى القول إن هذه النظرية التي جاء بها الجاحظ والبهائي لا يمكن أن تلقى قبولاً من المتعصبين، الذين اعتادوا أن ينظروا إلى كل من يخالفهم في العقيدة نظرة عداء شديد، ويعتبرونه مخلداً في النار، لا شفاعة تنفعه ولا يقبل الله منه عذراً. فطبيعة المتعصبين أنهم يتصورون أن الحق واضح، ومن السهل الوصول إليه عن طريق الدليل العقلي، وهم يتصورون كذلك أن المخالف لهم إنما انحرف عن الحق عناداً، إذ هو في أعماق نفسه يعرف الحق ثم يحيد عنه عمداً. وهذا هو الذي جعل المتعصبين من أصحاب العقائد المختلفة لا يترددون أن يعذبوا مخالفيهم أو يذبحوهم، ويسبوا نساءهم وأطفالهم، دون أن يرق لهم قلب أو يؤنبهم ضمير.

رد على البهائي غير واحد من رجال الدين في عصره وبعد عصره، ومن الطريف أن أحدهم حاول الدفاع عن البهائي فقال ما نصه: "إن المخالفين لم يبذلوا الجهد في تحصيل الدليل، ولو بذلوه لوصلوا إلى الحق غالباً"[32]، ويبدو أن هذا الرجل هو كأمثاله من المتعصبين، نشأ على

---

(31) أحمد أمين، ضحى الإسلام، القاهرة 1943، ج3 ص238.

(32) محسن الأمين، مصدر سابق، ج44 ص238.

عقيدة معينة، وتصور أن الحق فيها واضح، وما درى أن المخالفين الذين نشأوا على عقيدة أخرى يتصورون مثله أن الحق واضح فيها، و﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ (المؤمنون: 53).

محمد باقر المجلسي

عاش الملا محمد باقر المجلسي في المرحلة الأخيرة من الدولة الصفوية، إذ توفي في عام 1699، أي قبل سقوط الدولة الصفوية بثلاث وعشرين سنة، وهو يختلف عن الشيخ البهائي من عدة وجوه نخص بالذكر منها اثنين هما:

أولا: عاش المجلسي عيشة الترف والأبهة، وكان مطمئناً إلى تلك العيشة راضياً بها، وذلك على العكس مما كان عليه البهائي. وقد تولى المجلسي منصب "شيخ الإسلام" في عهد الشاه سليمان، ثم أضيف إليه في عهد الشاه حسين، آخر ملوك الدولة الصفوية، منصب "الملا باشي" -أي رئيس العلماء- تعظيماً له.

ثانياً: كان المجلسي شديد التعصب لعقيدته، ولا يتسامح مع أية عقيدة مخالفة مهما كانت، وقد أغرى الدولة باضطهاد جميع المخالفين الذين كانوا موجودين في داخل الحدود الإيرانية، كالسنِّيين والمتصوفة والمجوس واليهود والنصارى، ولم يسلم منه حتى الفلسفيين، إذ اعتبرهم من أتباع الإغريق الكفار[33].

---

(33) Laurence Loekhart, The Fall of the Safavi Dynasty, Cambridge, 1956, p.70-71

اشتهر المجلسي بكثرة مؤلفاته، وخاصة بكتابه "بحار الأنوار"، الذي يتكون من خمسة وعشرين مجلداً ضخماً، (حالياً مطبوع بـ110 أجزاء) وقد بولغ في غزارة كتابات المجلسي، حتى قيل إنه كان يكتب ما مقداره خمسون ألف كلمة كل يوم[34]. والمظنون أنه لم يكتب كل ذلك بيده، بل كان لديه كتاب كثيرون، فهو يرشدهم إلى ما يريد نقله من المراجع، ومما أعانه على تأليف كتابه "بحار الأنوار" أنه كان جامعاً للكتب، مولعاً باقتنائها، وكانت الدولة تساعده على ذلك، فقد بلغه ذات مرة أن أحد الكتب التي كان محتاجاً إليها موجود في اليمن، فأخبر الشاه بذلك، فأرسل الشاه سفيراً إلى ملك اليمن مع هدايا كثيرة، بغية الحصول على الكتاب[35].

كتب المجلسي "بحار الأنوار" باللغة العربية، بينما كانت مؤلفاته الأخرى باللغة الفارسية، وقد اتخذ في مؤلفاته الفارسية أسلوباً مبسطاً مفهوماً، مما جعلها ذات تأثير بالغ في الشعب الإيراني، وقيل إن كتابه "حق اليقين" كان سبباً في تشيع سبعين ألف سنّي من الإيرانيين[36].

أما كتاب "بحار الأنوار" فله شأن آخر، إنه أضخم كتاب لدى الشيعة، ويعد موسوعة كبرى، إذ جمع معظم أحاديث الشيعة وأخبارهم وعلومهم. وفي رأي بعض الباحثين أن المجلسي أساء إلى التشيع بهذا الكتاب

---

(34) Edward Browne, Op. Cit, Vol. 2, P. 404

(35) محسن الأمين، مصدر سابق، ج44 ص100-97.

(36) دوايت دونلدسن، عقيدة الشيعة، تعريب ع. م. القاهرة 1946، ص302.

أكثر مما نفعه، فهو قد جمع فيه كل ما عثر عليه من الأخبار والقصص والأساطير. لا فرق بين الغث والثمين منها. ثم وضعها في متناول كل من يريد الاغتراف منها، وجاء بعدئذ قراء "التعزية" وخطباء المنابر، فصاروا يأخذون منه ما يروق لهم، وبذا ملأوا أذهان العامة بالغلو والخرافة، وجعلوهم يحلقون في عالم من الأوهام لا صلة له بعالم الواقع الذي يعيشون فيه.

عندما تم تأليف كتاب "بحار الأنوار"، أوقف الشاه بعض أملاكه الخاصة في سبيل نسخ الكتاب وتوفيره للطلبة[37]، وحين أدخلت المطبعة الحجرية في إيران في العهد القاجاري، كان هذا الكتاب من أوائل المؤلفات التي طبعت فيها على نطاق واسع، وقد وردت إلى العراق منه نسخ كثيرة، مما أدى إلى انتشار معلوماته "الغثة" في أوساط الشعب العراقي، على منوال ما حدث في إيران.

أسباب وبواعث قيام الدولة الصفوية

علي أحمد رشيد(*)

كانت إيران تسمى بلاد فارس، وبعد أن دخلها الإسلام سميت بعراق العجم، وأصبحت تحت سيطرة الخلفاء الأمويين، وفي زمن العباسيين، تقسمت إيران إلى مناطق مختلفة يحكمها أمراء منصبون من قبل الخلفاء العباسيين، وبعد هذا تشكلت حكومات مستقلة في برهات تاريخية مختلفة، وكان بعضها إيراني الأصل، ولم تستطع تلك الحكومات أن توحد إيران وتجعلها دولة مستقلة عن الخلافة العباسية، لكن الصفويين استطاعوا أن يصنعوا إيران كياناً سياسياً موحداً، تحكمه دولة مركزية قوية، ومذهب رسمي يختلف عن السائد في البلاد الإسلامية الأخرى، وحكموا إيران وبعض الدول المجاورة لها من العام 1501 إلى 1773، بل إن الحكومة الصفوية أصبحت تدعي قيادة العالم الإسلامي بأجمعه. وسنحاول في هذا المقال أن نبين الأسباب والعلل التي أدَت إلى قيام الدولة الشيعية الصفوية في إيران، من مختلف الوجوه الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

(*) باحث وكاتب ومدرس في الألسنيات والهرمينوطيقا، إيران.

أولاً: الخلفية الشيعية قُبيل الصفوية

ظهر التشيع في بلاد فارس منذ القرن الأول الإسلامي حيث التجأ بعض العلويين الهاربين من قبضة الحكم الأموي إليها، واحتضنهم الفرس الذين كانوا يكنون حقداً وعداوةً تجاه السلطة الأموية، التي كانت تسيء معاملتهم وتعتبرهم من الموالي، وتتعامل معهم على نحوعنصري.

انتشر التشيع في البلاد المسماة اليوم إيران لأسباب مختلفة، منها:

1 - ردّ الفعل على سقوط الإمبراطورية الفارسية وسيطرة العرب عليها.

2 - تقارب الروح الباطني في التشيع مع الروح العرفاني في الديانة الزرادشتية والأديان الشرقية بشكل عام.

3 - سوء معاملة الحكام العرب، الذين كانوا يمثلون السلطة الرسمية لأهل السنَّة والجماعة بالنسبة لمواطنيهم من غير العرب، وكثيراً ما كانوا يتمتعون بدعم وتأييد فقهاء وعلماء أهل السنَّة[1].

ولم يكن ميل الإيرانيين إلى التشيع متجهاً نحو المذهب الإمامي، بل ظهرت تيارات شيعية مختلفة، من أهمها الزيدية في طبرستان بالشمال،

---

(1) راجع للمزيد: الشيعة في إيران، رسول جعفريان، المترجم: علي هاشم الأسدي، منشورات «مركز الدراسات الإسلامية»، مشهد، 1999.

والإسماعيلية في خراسان ومناطق غرب وجنوب إيران، والمذهب الإمامي في المناطق الجبلية في الوسط، كذلك لم تكن هذه الميول محصورة باختيارهم أحد المذاهب الشيعية، بل حتى كثير من أهل السنَّة والجماعة كانت لديهم ميول شيعية، ظهرت في ما يسمى بالنزعة السنِّية الاثني عشرية وهم عدد كبير من العلماء والمحدثين والشعراء، الذين كانوا ينتمون بشكل رسمي إلى أحد المذاهب السنِّية، ولكن برزت لديهم ميول روحية عميقة نحو أئمة الشيعة، كثيراً ما تصل إلى حد الغلوّ[2]، ومن أهم رموز هذا التيار: الحاكم النيسابوري (ت 405هـ/1014م) صاحب "المستدرك على الصحيحين"، والحاكم الحسكاني (عاش في القرن الخامس الهجري/الثاني عشر الميلادي) صاحب "شواهد التنزيل"، وملا جامي (ت 898 هـ/1492م) الشاعر الإيراني الشهير[3]، وملا حسين الكاشفي (ت 910 هـ/1504م) صاحب روضة الشهداء[4]، وغيرهم.

كان ثمة عناصر مشتركة تجمع بين التسنن والتشيع على مستوى اعتناق العامة للإسلام في إيران، تظهر غالباً في الانتماء الروحي والصوفي المتحرر نسبيا من قيود النظرة الفقهية والكلامية، على الرغم من أن التشيع هذا أوالاقتراب إليه تحول في العهد الصفوي إلى مؤسسة فقهية كلامية متكاملة، تنافس المؤسسات السنية الأخرى، وتقدم نفسها كبديل

---

(2) راجع: مقدمة «رسول جعفريان» على كتاب: وسيلة الخادم إلى المخدوم در شرح صلوات چهارده معصوم، فضل الله بن روز بهان الخنجي الأصفهاني، منشورات انصاريان، قم، 1995.

(3) شاعر متصوف سني معروف، وله ديوان اشعار عرفانية تحتوي على مدائح ذات نكهة شيعية لأئمة الشيعة. قبره في مدينة تربت جام، وهي مدينة سنية يحج إليها كثير من أهل سنة خراسان وبلوشستان لزيارة مرقده.

(4) عنوان اول كتاب مقتل الإمام الحسين باللغة الفارسية يحتوي على قصص خرافية كثيرة حول وقعة عاشوراء.

عنها، فالسائد قبل الصفوية هو نمط من ثقافة إسلامية عامة في إيران، لم تحتل فيها الاختلافات الفقهية والكلامية حيزاً كبيراً[5].

تصاعد انتشار التشيع تدريجيا بعد دخول المغول إلى بلاد فارس، بسبب سياساتهم التسامحية تجاه الأديان والمذاهب، فبدأ هذا المذهب ينتشر شيئاً فشيئاً في أنحاء البلاد بفضل جهود علماء الشيعة في تبليغ مذهبهم في مختلف المدن والأرياف، وأصبح التشيع من أوسع المذاهب الإسلامية انتشاراً قبيل قيام الدولة الصفوية، وباتت كل المؤشرات توحي بقيام دولة شيعية في إيران، تعلن بشكل رسمي عن التحول الديني الحادث منذ قرون بشكل تدريجي، لكن هذا لا يعني عدم استخدام أساليب الضغط في ترويج التشيع على يد الحكام الصفويين، إلا أن هذا الضغط لم يشكل السبب الرئيسي في قيام دولة شيعية في إيران، بل كان يشكل المرحلة الحاسمة للانتقال الديني الحادث في هذا البلد.

وبالمحصلة، لم يكن انتشار المدّ الشيعي في إيران، إذاً، بسبب قيام الدولة الصفوية كما هو المعروف عند بعض الكتّاب، بل على عكس ذلك، يعتبر قيام الدولة الصفوية نتيجة بالنسبة لظهور التشيع في إيران[6].

تحوّلت الأسرة الصفوية من التسنن إلى التشيع منذ عقود قبل قيام الدولة الصفوية، وهو يشكل دليلاً لما قلناه من أن المدّ الشيعي هو

---

(5) انظر: الفقيه والسلطان، وجيه كوثراني، دار الطليعة، بيروت، 2001، ص101– 105.

(6) المرجع السابق نفسه.

أحد أسباب قيام الدولة الصفوية، وليس العكس بأن الصفوية هي سبب لظهور وانتشار التشيع في إيران، هكذا اندمج التشيع بالتصوف في الأسرة الصفوية من عهد جنيد، وهو أحد أحفاد صفي الدين وجد شاه إسماعيل، مؤسس الدولة الصفوية[7]، وقد كانت هناك عوامل عديدة ساعدت على التقارب بين التشيع والتصوف بصورة عامة، كمفهومي الزهد والولاية الحاضرين بقوة في الفكر والتراث الشيعي والصوفي على السواء، أضف إلى ذلك ظاهرة الغلو عند بعض الجماعات الشيعية الذين يتقاسمون الكثير من الأفكار مع الصوفية، مما كان له دور كبير في ردم الهوة بين هذا النوع من التشيع الغالي والتصوف[8].

وكنموذج على التقارب الصوفي-الشيعي، فقد قدمت إحدى الطرق، وهي الكبراوية، عددا من الفلاسفة الصوفيين منهم: علاء الدولة السمناني (ت 1335م) وسيد علي الهمذاني (ت 1385م) حيث التقت في نصوصهما خطوط من الفكر الصوفي السنِّي ومن الإمامية الشيعية، والمحور المركزي في أفكار هؤلاء هو في مماهاة معتقد غيبة الإمام بمفهوم الحضور الدائم للقطب غير المنظور بالتحديد[9]، ولعلنا إذا أخذنا بالاعتبار هذا الاختلاط الفكري، الذي ميز الحياة الروحية في إيران قبل انتصار الشاه إسماعيل، نفهم لماذا التبس الأمر على المؤرخين في تحديد مذهبية الشيخ

---

(7) صفويه در عرصه دين فرهنك وسياست (الصفوية على الصعيد الديني والثقافي والسياسي)، رسول جعفريان، ج2 ص515.

(8) الصلة بين التصوف والتشيع، مصطفى كامل الشيبي، ج2 ص362-361.

(9) حول تاثير هذا المماهاة في الشعر الفارسي راجع: حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، Encyclopedia of Islam: Art Iran. «التصوف في الشعر الفارسي» ج2 ص339.

صفي الدين (ت 1234م) صاحب الطريقة الصفوية، فتساءلوا: هل هو سنِّي أم شيعي؟ إن ما يفسر هذا اللبس هو سيادة نمط من ثقافة إسلامية عامة في إيران متعددة المصادر والتعبيرات، ولعل أبرز هذه التعبيرات، قبل انتقال الطريقة الصفوية إلى سلطان صفوي، هي جمعها بين التصوف والإمامية. وفي إطار هذا الجمع، يبدو التساؤل حول مذهبية الطريقة الصفوية أمراً ثانوياً.

ويرى المؤرخون أن الشيخ صفي الدين كان سنّياً، وأن مسألة تشيعه ونسبته إلى الإمام موسى بن جعفر الكاظم هي رواية وضعت في عهد إسماعيل الصفوي كجزء من حالة التعبئة السلطانية، وتذكر الروايات التاريخية بأن قادة الطريقة الصفوية قد مالوا إلى التشيع منذ زمان الشيخ خواجه علي، وفي زمان الشيخ جنيد (ت 851هـ/1447) وابنه الشيخ حيدر (ت 893هـ/1487)، التحق الكثير من القبائل والقرويين بالطريقة الصفوية، وكوّنوا حركة على أساس الاعتقادات المهدوية، وبعد جلوس الملك إسماعيل على العرش وتتويجه في تبريز، قرر أن يجعل المذهب الشيعي هوالمذهب الرسمي في البلاد، وكان يعتبر نفسه منفذاً لأوامر الأئمة الاثني عشر وقد أشار إلى رؤياه عن الإمام المهدي، الذي وضع تاجاً أحمر فوق رأسه وأمره بالجهاد[10]، وقد قال أيضاً بأن جميع أعماله تصدر بأمر من الأئمة الاثني عشر[11].

---

(10) الصلة بين التصوف والتشيع، كامل مصطفى الشيبي، ص388.

(11) إيران عصر صفوي (إيران في العصر الصفوي)، راجر سيورى، ترجمة كامبيز عزيزي، طهران، نشر المركز، الطبعة الثامنة، عام 1999، ص26.

ثانياً: الأسباب الاجتماعية للتوسع الصفوي

عاشت إيران فترة طويلة من الانقسام بعد سقوط الإمبراطورية الساسانية على أيدي العرب المسلمين، وقد ظهرت في هذه الفترة، حكومات مشتتة في مختلف أنحاء البلاد، وسادت بينها حروب دامية مستمرة، ولم يكن باستطاعة أحدها التغلب الحاسم وإيجاد كيان سياسي موحد في إيران، وكان الصفويون الأوائل على بينة من صعوبة تأسيس وطن موحد، وتكوين شعب في بلد واسع مشتت ومنقسم طائفياً وعرقياً، لهذا استخدموا سلطتهم الروحية بوصفهم أقطاب أحد السلاسل الصوفية، وهي الأكثر انتشاراً في مختلف أنحاء إيران آنذاك، فوظفوا تلك السلطة لأغراض سياسية في سبيل توحيد البلاد، كما سعوا لتأسيس وحدة وطنية في ظل وحدة مذهبية[12].

وبعد اجتياح المغول لإيران في منتصف القرن الثالث عشر، وعجز الدولة الإسلامية عن مواجهة هذا المد الهادر من الجيوش الجرارة، التي اكتسحت كل شيء، ولم تترك وراءها إلا القتل والدمار، لم تجد الشعوب الإسلامية، ومنها الفرس، بدّاً من التوجه نحو عالم الزهد والمعنى -والذي كان التصوف ممثلهما الرئيسي آنذاك- علّهم يجدون ما يسكّن آلامهم، ويهدئ روعهم، ويعيد إليهم الأمل بعد كل ما شاهدوه من مشاهد وصور

(12) نقش مذهب در روابط إيران وعثماني در عهد صفويه از آغاز تا ابتداي سلطنت شاه عباس (دور المذهب في العلاقات الإيرانية العثمانية من اول ألصفوية إلى حكم الشاه عباس)، داود شاهي، رسالة ماجستير في فرع تاريخ الإسلام، جامعة اصفهان، (6 اكتوبر/تشرين الأول 2006).

مروعة، فأخذت الخانقاوات تنتشر في كل مكان، وامتلأت حلقاتها ومجالسها بالأتباع والمؤيدين[13]، ففي ظلّ التشرذم السياسي والاجتماعي السائد آنذاك، كان المجتمع الإيراني ينخرط بشكل أساسي في الأطر الصوفية التي انتشرت في أنحائه خلال فترة ما قبل قيام الصفوية، فنلاحظ أن الانتشار الواسع للصوفية في إيران كان أحد أهمّ مميزات الحياة الروحية طوال ثلاثة قرون فصلت ما بين الغزو المغولي والصعود الصفوي.

وتأسيساً على ما ذكر، صار للفرق الصوفية، أو التصوف، انتشار منقطع النظير في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، حيث انتشرت الخانقاوات والزوايا في كل مكان، وصار الملوك يتقربون إلى رؤساء الطرق الصوفية في سبيل دعم حكوماتهم وزيادة شعبيتهم، وتبدو المعاني الأكثر بروزا في الممارسة الدينية لدى الناس في ذلك الورع والاحترام حيال شيوخ الطرق، الذين يقدمون نماذج بشرية مختلفة في نظام المعايير الاجتماعية، كما تبدو أيضا في نمو «الأخويات الصوفية» العديدة، وفي هذه الأثناء ظهر خانقاه في مدينة اردبيل، كان له دور غاية في الأهمية في الأحداث التي توالت فيما بعد، حيث تأسست طريقة صوفية جديدة في هذا الخانقاه، تابعة لصفي الدين الأردبيلي (ت 1334م) الذي اكتسب شعبية كبيرة، وحصل على أموال طائلة، مهدت الطريق أمام أحفاده كي يبنوا مجدهم ويؤسسوا دولتهم، وقد انتقلت رئاسة الطريقة الصفوية إلى أولاد صفي الدين، وبهذا تحول ولاء الأتباع من الولاء للطريقة إلى الولاء للأسرة[14].

---

(13) سيرى در تصوف وعرفان إيران (نظرة في التصوف والعرفان الإيراني)، محمود عبد الصمدي، ص57-56.
(14) جستجودر تصوف إيران (البحث عن تصوف إيران)، عبدالحسين زرين كوب، ص232.

اتخذت الطرق الصوفية منذ فترة الشيخ صفي الدين الأردبيلي، موقفاً معارضاً للحكومات الظالمة، فكان الصوفيون التابعون للطريقة الصفوية يشاركون الناس في آلامهم وآمالهم، ولم يعزلوا أنفسهم عن المجتمع ومشاكل الناس كما يعرف من عقائد الصوفية المعروفة، وقد كان خانقاه الشيخ صفي وأحفاده مأوى آمناً لكل مظلوم يريد أن يدافع عن حقه، فاكتسب مشايخ الصفوية قدرة معنوية واجتماعية لدي أتباع طريقتهم، وساعد على ذلك، الكاريزما التي كانوا يتمتعون بها، بوصفهم أسياداً ذوي قداسة دينية، نابعة من زهدهم وتقشفهم، وأصحاب قدرة إلهية بحسب معتقد أتباعهم[15]، وكما تشير الروايات التاريخية، كان صيت قداسة مشايخ الصوفية قد وصل إلى أقصى نقاط بلاد الأناضول والشام[16]، وبمرور الزمن، ومع ازدياد عدد المريدين لشيوخ الصفوية، وتراكم الهدايا والنذورات والأموال التي كانت تُهدى إلى الخانقاه، تكونت قدرة أخرى للصفويين، ألا وهي القدرة الاجتماعية والسياسية، والتي أدت إلى استقرار حكومة سياسية للصفويين في المستقبل[17].

وفي عهد جنيد، الذي تسلّم قيادة الطريقة في عام 1447م، تحولت الطريقة على يديه إلى حركة يغلب عليها الطابع السياسي، ولاحظ معاصروه أنه «كان على طريق الملوك لا طريق القوم» وأن المريدين كانوا يقصدونه «من بلاد الروم والعجم وسائر البلاد»[18]، ثم جاء دور قائد

(15) صفوة الصفا، ابن بزاز، تصحيح وتحقيق: غلامرضا طباطبايي مجد، الطبعة الثانية، طهران، عام 1376، ص88.

(16) تاريخ عالم آراى اميني، فضل الله روزبهان خنجي، تصحيح وتحقيق: محمد اكبر عشيق، طهران، منشورات ميراث مكتوب، الطبعة الاولى، ص261.

(17) هويت سياسى دولت صفوى (الهوية السياسية للدولة الصفوية)، محسن بهرام نجاد، في مجموعة مقالات «إيران عبر التاريخ»، جامعة تبريز، 1383هـ/1963م.

(18) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، مادة الصفويين، مصطفى كامل الشيبي، مج3، ص220.

طموح -وهوإسماعيل- والذي استطاع أن يحول هذه المؤسسة الاجتماعية الدينية المتطلعة نحو أهداف سياسية، إلى حركة سياسية جمعت في صفوفها فتوة عسكرية واسعة من قبائل التركمان، إلى قوة غالبة داخل إيران، استتبعت مراكز القوى الأسرية فيها، وقضت على بقايا الدول القديمة، كالتيمورية وغيرها من الأسر.

استطاع الشاه إسماعيل استثمار جهود آبائه الذين انتهى مصير العديد منهم إلى القتل، فأسس في أواخر القرن الخامس عشر (1494م) دولة قوية استمر وجودها أكثر من قرنين من الزمن، وكان لها أثر بالغ في مجمل الأحداث في ذلك العصر، وأعلن إسماعيل الصفوي (ت 1524م) نفسه شاهاً في عام 1501م، موحداً إيران، ومتطلعاً إلى نفوذ أوسع في دار الإسلام عبر الأناضول والعراق، الأمر الذي يصدمه بأعظم قوة إسلامية (عسكرية وسياسية) آنذاك، وهي قوة السلطة العثمانية، فقد تمكن إسماعيل على صغر سنه من اجتياح إيران وحتى العراق خلال فترة قياسية جداً.

فالطريقة الصوفية التي أسسها الشيخ صفي الدين، كانت ظهيراً لإسماعيل في تأسيس سلالته الملكية، وعلى الرغم من الهزيمة التي تلقتها من العثمانيين، إلا أن السلسلة الصفوية استطاعت أن تستمر بالحياة، وبل استطاعت أن تهزم العثمانيين في فترات لاحقة، بفضل القاعدة الاجتماعية التي كانت تتمتع بها في مختلف أوساط إيران، من علماء ومزارعين وجنود وغيرهم، خصوصاً أن الكثير من مريدي الصفوية كانوا من العشائر

والقبائل الذين رافقوا الشيخ جنيد من الأناضول، وكانوا يقدسون مشايخ الطريقة الصوفية وكبار القوم، ويمنحونهم هالة عظيمة غير طبيعية (خارقة).

استطاع الصفويون أيضاً بادعائهم السيادة، والانتساب إلى نسل الرسول صلى الله عليه وسلم، من جهة حفيده الإمام موسى الكاظم، أن يكتسبوا شعبية ومحبة واسعتين من قبل الإيرانيين، وادعى الصفويون كذلك بأنهم نواب الإمام صاحب الزمان، الذي يعيش تحت ستار الغيبة حسب معتقدات الشيعة، فقد ادعى الملك إسماعيل بأنه نائب الإمام الحجة، وأن الإمام قد كلفه بالقيام لإحياء مذهب الشيعة، واستطاع بهذا الادعاء أن يكسب ثقة الناس، وأن يكسب دعماً شعبياً هائلا في مختلف أنحاء إيران[19].

ثالثاً: الأسباب السياسية

ظهرت عدة دول تركمانية في بلاد فارس منذ دخول المسلمين إليها، وهي الدولة الغزنوية، والدولة الإيلخانية، والدولة السلجوقية، ودولتا «آق قويونلو» و«قرة قويونلو»، والدولة الصفوية، والدولة الأفشارية، والدولة القاجارية. وقد نشأ كثير من هذه الدول في أذربيجان، واتخذتها مركزا لها في النواحي الإدارية والعسكرية والثقافية[20].

---

(19) إيران در روزكار شاه إسماعيل وشاه طهماسب صفوي (إيران في عهد شاه إسماعيل وشاه طهماسب الصفوي)، امير محمد بن خواند مير، ترجمة: غلامرضا طباطبايى مجد، طهران، مؤسسة الدكتور محمود افشار، عام 1980، ص126.

(20) الصفويون والدولة الصفوية، فوزي توركر، مجلة ديوان العرب، يناير (كانون الثاني) 2007.

ولما انقرض الإيلخانيون (سلالة مغول إيران)، تفرد بعض القادة والولاة بإعلان استقلالهم في ولايات إيران، كما برزت أُسَر عديدة تقاسمت الولايات فيما بينها، ومن أهم هذه الأسر: الجلائريون (1336-1411م)، المظفريون (1313-1393م)، بنو اينجو في فارس (1303-1357م)، السربداريون في خراسان (1337–1381م)، ملوك كرت (1245-1383م)، الآقيونيون (1403-1508م)، القره قويونلويون (1380–1469م).

كان تيمورلنك (ت 1405م) قد استطاع عبر فتوحاته الكبرى أن يجعل من دولته، دولة ما وراء النهر، مشروع إمبراطورية شاسعة من دلهي إلى دمشق، ومن بحيرة آرال إلى خليج البصرة، وصارت سمرقند عاصمة هذه الإمبراطورية الحديثة، إلا أن هذه العسكرية الخاطفة ما كانت لتقوى علي تأسيس إمبراطورية منظمة، فبعد وفاة الفاتح العسكري، لم يقو خلفاؤه من التيموريين على منع عودة الأسر الكثيرة إلى حكم مناطقها، بل إنهم تحولوا بدورهم إلى إحدى الأسر الحاكمة في شمالي إيران، واستمروا في حكمهم قرناً من الزمن.

وبعد أن تجزأت التيمورية إثر وفاة تيمورلنك، استوطنت إيران قبيلتان من قبائل التركمان هما «قرة قويونلو» أي أصحاب الخراف السوداء، و«آق قويونلو» أي أصحاب الخراف البيضاء، وكانت الفوضى تسود إيران آنذاك، والقتال كان مستمراً بين القبيلتين[21]، واستمر الصراع على السلطة بين العصبيات النافذة في أنحاء البلاد طيلة القرنين الرابع

(21) تاريخ الصفويين وحضارتهم، بديع جمعة وأحمد الخولي، القاهرة: دار الرائد العربي، 1976م، صص 12-3.

عشر والخامس عشر الميلاديين، حتى ظهور إسماعيل الصفوي، فلم تتمكن الأسر الحاكمة المتشرذمة من الصمود أمام العصبية الجديدة المتبلورة في الصفويين.

استطاع الشاه إسماعيل في فترة قياسية جداً السيطرة على مناطق شاسعة في وسط وغرب إيران، بسبب الفوضى السائدة في مختلف أنحائها، وعدم وجود حكومات مقتدرة تنافس الصفوية في أهدافها السياسية، ولم يوقف زحفه الطموح إلا هزيمته النكراء في معركة "شالدران" أمام العثمانيين الذين أصابهم الهلع من هذا الفاتح الشاب، فاستعانوا بالأسلحة النارية ومنها المدافع، فسحقوا جيش إسماعيل الذي كان يقاتل بالسيف والأسلحة البدائية[22].

ولم يحاول العثمانيون إكمال نصرهم بمطاردة فلول الجيش الصفوي المنهزمة وغزو إيران لأسباب عديدة من أهمها: انشغالهم بفتح أوروبا وحروبهم المستمرة مع الدول الأوروبية المجاورة، وعدم الرغبة بفتح إيران والسيطرة عليها بسبب تغلب الطبيعة الصحراوية على كثير من أراضيها، وعدم وجود مصالح اقتصادية أو سياسية هامة بالنسبة للعثمانيين آنذاك.

تصور العثمانيون أن أمر الصفوية قد انتهى في معركة شالدران، ولن تكون هناك إمكانية لنهوضهم مرة ثانية، مما سمح للصفويين باسترداد أنفاسهم واستعادة قواهم، على الرغم من أن إسماعيل نفسه

---

(22) الصلة بين التصوف والتشيع، مصطفى كامل الشيبي، ج2 ص367-366.

لم يتمكن من استيعاب الصدمة، وخاصة بعد أسر زوجته، فأدمن على الخمر، وبقي يعاني من آثار الهزيمة حتى مات[23].

سعى الصفويون إلى خلق القلاقل والفتن في مناطق الحكم العثماني لإضعافه، مستعينين في ذلك بشيعة تلك المناطق، بغية الحصول على الصدارة في العالم الإسلامي، الأمر الذي انتهى بتصفية العثمانين للشيعة على أراضيهم المتاخمة لإيران[24]، فالخريطة السياسية آنذاك كانت تساعد من جميع الجهات على تأسيس الدولة الصفوية الموحدة في إيران.

رابعاً: الأسباب الاقتصادية

كانت إيران تواجه مشاكل عديدة قبل الحكومة الصفوية، فقد كانت معرضة للحروب والدمار باستمرار، وهوجمت من قبل الأتراك الغزنويين والسلجوقيين وجنكيز خان المغولي، فدمر الغزاة البلاد، وقتلوا الآلاف بوحشية، وأراقوا الدماء، وهجّروا الكثيرين من أوطانهم، ومعروف أن الجنود المغول كانوا يذهبون للقرى ويأخذون ضرائب ثقيلة من القرويين، ويسرقون أموالهم ويتصرفون في بيوتهم، فلهذه الأسباب والظروف التي

---

(23) انقلاب الإسلام بين الخواص والعوام، محمد عارف اسپناقچي پاشازاده ،منشورات دليل، قم، الطبعة الاولى، ص112.

(24) نقش مذهب در روابط إيران وعثماني در عهد صفويه از آغاز تا ابتداي سلطنت شاه عباس (دور المذهب في العلاقات الإيرانية العثمانية من أول الصفوية إلى حكم الشاه عباس)، داود شاهي، رسالة ماجستير في فرع تاريخ الإسلام، جامعة اصفهان، (6 اكتوبر/تشرين الأول 2006م).

دامت سنين طويلة في إيران، كان الشعب الإيراني يتعطش إلى حكومة قوية عادلة، يركن إليها ويشعر بالأمان والاستقرار.

كان الجوع والفقر يعمان البلاد، وكان الشعب ينوء تحت وطأة الظلم والجور، فكان أحد أساليب التقليل من هذه الضغوط القوية، اللجوء إلى الأفكار والتعاليم الصوفية، وكان الصوفيون آنذاك يعلمون الناس الصبر عند المصائب، وعدم الاهتمام بالدنيا وآلامها، وكانوا يؤكدون على ترك الظواهر والاهتمام بالباطن، فمن الباطن تأتي القوة الروحية، ويستطيع الإنسان التغلب على مشاكله وتحمل مصائبه، وقد انجذب الكثير من الناس للصوفية للأسباب التي ذكرناها، وأصبحت زوايا الصوفيين والخانقاهات، مراكز خدمة وإعانة لجميع أفراد الشعب، ومن هذا المنطلق، أحب الناس كبار شيوخ الصفوية، الذين كانوا من كبار الصوفيين في زمانهم، وكانوا يحترمونهم ويقدسونهم.

واكتسبت خانقاه الشيخ صفي الدين الأردبيلي مركزاً شعبياً قوياً، وحين حاول شيوخ الصفوية في زمن الشيخ جنيد وما بعده أن يحصلوا على قدرة عسكرية، التحق الكثير من الفقراء والمحرومين في المجتمع بهم، وقبلوا المذهب الشيعي بسرعة، لاعتقادهم بأن العدالة هي هدف رئيسي مهم في مذهب التشيع، وأنه سينقذهم من حكومات الظلم والجور[25].

---

(25) شاه إسماعيل اول، منوتشهر بارسا دولت، منشورات شركت سهامى انتشار، الطبعة الاولى، 1375، ص102.

وهكذا دعم الناس الحكومة الصفوية الجديدة، ودافعوا بقوة وشجاعة عن الملك إسماعيل، الذي كان عمره أربعة عشر عاما فقط، فقد اعتبروا هذا الملك الشاب منقذاً لهم، وملاذاً قوياً أمام هجمات الأتراك والمغول والتيموريه والأوزبك، والشاهد لهذا أنه حين حارب الملك إسماعيل مع الأوزبك في خراسان، أمر وزيره "الأمير يار أحمد الأصفهاني" المعروف بالنجم الثاني، بقتل الجنود الأوزبك أينما كانوا، وبعد أن فتح قلعة "القرشي" مقر الأوزبك، قتلهم جميعاً وقال: لقد شفي غليلي الآن، لأني أخذت بالثأر للقتلى الذين قتلهم جنكيز وتيمور[26]، وقد قال الأوزبك عن هذه الحرب: "كأن القضاء والقدر قد أرسلا هذا البلاء الأسود علينا، انتقاماً للمذابح التي وقعت بأمر جنكيز وتيمور خان والجزاء حق، وهذا إسماعيل كالدجال لقهره وغضبه الشديد علينا"[27].

ومن جهة أخرى توجه الأوروبيون في هذه الفترة إلى إيران، لأن العثمانية قطعت طريق التجارة بين الشرق والغرب بأخذها القسطنطينية (1453م)، لهذا انحاز الأوروبيون إلى إيران لاستخدامها في ضرب العثمانية وفتح طريق التجارة، في حين كان العثمانيون يفكرون باجتياح أراضي أوروبا الخصبة أكثر من الطموح لتملك صحارى إيران، لذلك انصرف جل توجههم إلى أوروبا، ولم يتوجهوا إلى إيران إلا إذا ما فشلوا في حرب مع أوروبا أو فرغوا من الحرب[28].

---

(26) عالم آراي صفوي، المؤلف مجهول، منشورات بنياد فرهنك إيران، طهران، 1970، ص372.

(27) عالم آراي صفوي، ص 375.

(28) مسعود موسوي شفايي، تحولات روابط إيران وعثماني، مجلة كزارش كفت وكو، العدد 15، بهمن واسفند 1385ش، (فبراير/شباط ومارس/آذار 2007)، ص ص23 و24.

مجموع هذه الأسباب هيأ الأرضية المناسبة للحكومة الصفوية، واستطاع الملك إسماعيل أن يؤسس حكومة مقتدرة في وقت قصير، وأن يكسب شعبية واسعة بين الناس، ويقمع مخالفيه. وعلى الرغم من أن السلطان العثماني هزمه في حرب "شالدران"، إلا أن حكومته والمذهب الشيعي الذي جعله المذهب الرسمي للبلاد، كانا قد حازا قبولاً شعبياً واسعاً لم يتزلزل أبداً، واستطاع خلفاؤه أن يستمروا في الحكم، وأن يزيدوا من قدرة الحكومة الصفوية، لتصبح منافسة جدية وقوية أمام الإمبراطورية العثمانية السنِّية.

الصفوية والعثمانية... تطاحن الأيديولوجيات الطائفية

د. مشتاق عبد مناف الحلو[*]

تعتبر العثمانية والصفوية من أهم السلالات التي حكمت في تاريخ المسلمين، وبما أن العثمانية أصبحت ترمز إلى الإرادة السياسية السنّية، بينما ترمز الصفوية إلى الإرادة السياسية الشيعية، فقد بات الحديث عن الخلفيات الدينية للسلالتين، ودور المعتقد الديني في تكوين قراراتهما، في غاية الأهمية، خصوصاً أن كلا الطرفين استخدم الخطاب الديني على نطاق واسع في تسيير سياساته، لهذا خصصت هذه الورقة لدراسة العلاقات بينهما، فتذكر موجزاً عن تاريخ السلالتين، والنقاط المفصلية في تاريخهما، وكذلك عن علاقتهما.

(*) باحث وكاتب عراقي.

تعد العثمانية الأهم من بين السلالات التي حكمت العالم الإسلامي، بعد الخلافة الراشدة والأموية والعباسية، فقد مثلت الخلافة الإسلامية لأغلب المسلمين، بحيث لم يتمكنوا من استيعاب زوالها، وحتى بعد أن زالت عن المسرح السياسي، بقي حلم عودتها قابعا في أذهان بعضهم، ومن أهم ميزاتها، اتساع الرقعة التي حكمتها وطول أمدها، حيث اعتاد المسلمون على وجودها كنظام يهب المشروعية لاجتماعهم السياسي والمدني.

أما السلاسة الصفوية فتكمن أهميتها في كونها أول سلالة استطاعت أن توحد بلاد فارس بعد الإسلام، وخلقت ما يمكن أن يشبَّه اليوم بالحكومة الوطنية، معتمدة في ذلك على الحس القومي الذي تنامى في تلك البلاد، وظروف موضوعية أخرى، ثم هي التي قامت بآخر مرحلة من العملية التاريخية لتغيير المذهب الرسمي في إيران، من مذهب أهل السنَّة والجماعة إلى التشيع، وهو التحول الأعظم في تاريخ إيران بعد الإسلام، ما زلنا نشهد تداعياته إلى اليوم، ونسمع في إيران صرخات تطالب بإعادة أمجاده[1].

السلالة والدولة العثمانية

ينحدر العثمانيون من قبائل الغز (أوغوز) التركية، التي تحولت مع موجة الغارات المغولية عن موطنها في منغوليا إلى ناحية الغرب، وقد أقاموا

---

(1) من افتتاحية مجلة «بكاه حوزة»، الصادرة عن مكتب الاعلام الإسلامي في الحوزة العلمية بقم المقدسة، بتاريخ 5 محرم 1427هـ/ 4 فبراير (شباط) 2006م، التي جاءت تحت عنوان (نظرية جهان بزرك إيراني) أي: نظرية العالَم الإيراني الكبير، يقول الكاتب فيها: إن الجمهورية الإسلامية هي إعادة صياغة الصفوية في العالم الحديث، ولهذا يطالب بأن تستعيد إيران دورها في ريادة العالم.

منذ العام 1237م إمارة حربية في بيتينيا (شمال الأناضول)، وتمكنوا بعدها من إزاحة السلاجقة عن منطقة الأناضول في عهد السلطان عثمان الأول (1299-1326م)، الذي حملت الأسرة اسمه، ثم ورد العثمانيون لأول مرة أرض البلقان عام 1354م، وكانت قاعدتهم الأولى مدينة غاليبولي (في تركيا)، وتوسعت المملكة على حساب مملكة بيزنطة، من خلال فتح إدرين في عام 1361م، وبورصة في عام 1376م.

شكّل العثمانيون وحدات خاصة عرفت باسم الإنكشارية (كان أكثر أعضائها من منطقة البلقان)، وتمكنوا بفضل هذه القوات الجديدة من التوسع سريعا في البلقان والأناضول معاً، وخصوصاً بعد معركة نيكبوليس عام 1389م، إلا أنهم منيوا بهزيمة أمام قوات تيمورلنك في أنقرة سنة 1402م، وتلت هذه الهزيمة فترة اضطرابات وقلاقل سياسية، لكن الدولة استعادت توازنها وواصلت سياسة التوسع في عهد السلطان مراد الثاني (1446-1451)، ثم محمد الفاتح (1451-1481)، الذي فتح القسطنطينية سنة 1453، وأنهى بذلك قرونا من التواجد البيزنطي المسيحي في المنطقة، كما حاولوا غزو جنوب إيطاليا، وأخيراً تمكن السلطان سليم الأول (1512-1520) من الانتصار على الصفويين في معركة جالدران (1514)، واستولى على أذربيجان، وفتح كل بلاد الشام وفلسطين (1516)، ومصر (1517)، ثم جزيرة العرب والحجاز.

بلغت الدولة العثمانية أوجها في عهد ابنه سليمان الأول القانوني (1520-1566) الذي واصل فتوح البلقان، المجر، وبنى أسطولاً بحرياً لبسط سيطرته على البحر المتوسط (بعد 1552)، وأخضع دول المغرب الثلاث: الجزائر، تونس ثم ليبيا، قبل أن يحاصر فيينا (1583).

أصبحت السلطة منذ عام 1656 بيد كبير الوزراء (وزيري أعظم- الصدر الأعظم)، أو كبار القادة الإنكشاريين، وأصبح الملك بأيدي سلاطين ضعاف، وبدأت مع هذه الفترة مرحلة الانحطاط الشامل، حيث تحول وضع العثمانيين منذ 1700 من الهجوم إلى الدفاع، ثم تمت إعادة هيكلة الدولة في عهد السلطانين سليم الثالث (1789-1807) ومحمود الثاني (1808-1839) من بعده، لكن على الرغم من ذلك، فقد استمر وضع الدولة في التراجع، وفي عام 1839 أعلنت التنظيمات، وهي إصلاحات على الطريقة الأوروبية، لكن السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909) أنهى هذه الإصلاحات بطريقة استبدادية، ونتيجة لذلك ناصبته كل القوى الوطنية في تركيا العداء، حتى تم خلع آخر السلاطين محمد السادس (1918-1922) عام 1922، وأخيرا ألغى كمال أتاتورك الخلافة نهائيا عام 1924، وبذلك يكون العثمانيون حكموا البلقان والأناضول وأراضي واسعة أخرى، مابين سنوات 1280-1922.

إذاً يمكن تقسيم التطور السياسي للدولة العثمانية إلى ثلاث مراحل: مرحلة الإمارة والتأسيس (1288-1362)؛ مرحلة الدولة (1362-1516)؛ مرحلة الإمبراطورية (1516-1922). وقد تغير مقرها تبعا لكل مرحلة، ففي المرحلة الأولى كان ياني سهير 1280-1366، ثم إدرنة (إدرين) 1366-1453، وأخيرا إسطنبول (القسطنطينية) منذ 1453، وحتى السقوط[2].

(2) للمزيد من الاطلاع راجع: أبو الحسن علوي بن حسن عطرجي، الصفويون والدولة العثمانية، راجعه وقدم له: محمد بن حسن بن عقيل موسى، دار الأندلس الخضراء.

السلالة و الدولة الصفوية

هناك خلاف بين المؤرخين حول أصل الصفوية، فالنسخة الخطية لصفوة الصفا التي تعود لـ "ليدن"، تذكر نسب الصفوية وترجعه إلى الأكراد[3]، علما أن نزعتهم الصوفية أيضاً قد تؤيد كونهم أكراداً، كذلك فإن لغتهم محل خلاف وأصلها غير واضح بالضبط[4]. كانوا شافعيين (وهذا أيضاً قرينة على أصلهم الكردي)، ويبدو أن أول من مال إلى التشيع هو الخواجة علي بن الشيخ صدر الدين موسى[5]، وقد لعب التقارب التاريخي بين التصوف والتشيع دوراً مهما في توجه الصفويين إلى التشيع.

يرجع نسب الصفويين إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي (1252-1334م) الذي أسس طريقته الصوفية في أردبيل سنة 1300م. وأصبحت أردبيل عاصمة أتباعه الدينية ثم السياسية (مع تحولها إلى حركة سياسية)، وبعد وفاته خلفه ابنه صدر الدين موسى، ثم انتقل الأمر إلى ابنه صدر الدين خواجة علي سياهبوش، وقد ساعدت الظروف السيئة التي حلت بإيران على أيدي التيموريين في ازدياد مريديه والتفافهم حوله، وهو أول من اعتنق المذهب الشيعي من الأسرة الصفوية ودعا إليه، ما يعد نقطة تحول في مسار هذه الأسرة، ومن الواضح أن لمسألة قبول مذهب ومعتقد جديد أسبابا كثيرة ومعقدة، ولا تتم باستعمال القوة فقط[6].

---

(3) عباسقلي غفاري فرد، نكاهي به كرفاي تحولات در خاندان صفوية از شيخ صفي تا شاه إسماعيل (نظرة على عمق التحولات في السلالة الصفوية منذ الشيخ صفي إلى السلطان إسماعيل)، مجلة كيهان فرهنكي، اسفند 80 (مارس/ آذار 2002م)، العدد 185 و186، ص53.

(4) المرجع السابق، ص 54.

(5) المرجع السابق، ص 55.

(6) للمزيد من الاطلاع راجع: «الأسباب و الخلفيات لقيام الدولة الصفوية» و «سيرة حياة العائلة الصفوية وملوكها» في هذا الملف نفسه.

نجح الصفويون في الوصول إلى الحكم (على بعض المناطق) أثناء زعامة جنيد (1447-1450م) ثم حيدر (1460-1488م)، اللذين استطاعا إنشاء تنظيم سياسي وتكوين وحدات خاصة من الجيش، أو ما سموها بالقزلباش، وكانت تبريز مقر الصفوية حتى 1548م، ثم أصبحت قزوين مقرهم من 1548 إلى 1598م، ومن ثم أصفهان إلى عهد سقوطهم[7].

مدّت الصفوية جسور العلاقة مع مختلف البلدان، كالهند والأوزبك والأفغان، لكن أهم علاقاتها، سواء الودية منها أو العدائية كانت مع السلطنة العثمانية، ويبدو أن العامل الأول الذي حدد العلاقات بين البلدين كان البنية التقليدية والمذهبية لهما، فالتعارض الطائفي قاد البلدين إلى حروب مدمرة، انتهت بمعاهدة قصر شيرين، التي عيّنت حدودهما، ولم يطرأ أي تغيير يذكر عليها جراء نشوب الحروب بين البلدين فيما بعد.

حارب كل من الصفويين والعثمانيين روسيا كلما فرغوا من الاقتتال بينهما، لكن على انفراد، ولم يفكروا أبدا بالاتحاد، بل على العكس تماما، فكروا بالاتحاد مع روسيا قبالة بعضهما. وفي نهاية المطاف، قدمت إيران كل ما قاتلت من أجله ثلاثة قرون لروسيا، وانحسرت العثمانية داخل حدود تركيا[8].

---

(7) The New Islamic Dynasties; A chronological and genealogical manual, Clifford Edmund Bosworth, Edinburgh university press, 1996

(8) مسعود موسوي شفايي، تحولات روابط إيران وعثماني، مجلة كزارش كفت وكو، العدد 15، بهمن واسفند 1385ش، ص22.

العلاقات الصفوية-العثمانية

يعتبر تاريخ إيران الصفوية وتركيا العثمانية، تاريخ صراع ودم، وقد بلغ ذروته بحروب الشاه إسماعيل والسلطان سليم، لكن فترة حكم نادر شاه شهدت بعض التعقل والحكمة في العلاقات بين الدولتين، ولم يكن الصراع سيد العلاقات بين الشعبين حتى في تلك الفترة العصيبة، بل استفاد الأتراك من الأدب الفارسي، كما تعرفت إيران على العلم الحديث من خلال تركيا، التي مثلت طريقها إلى أوروبا آنذاك، وللأسف لم تحتفظ إيران بوثائقها التاريخية حسب تقرير الدكتور محمد أمين رياحي (في كتاب سفارتنامه هاي إيران)، وانعدمت أغلب الوثائق التاريخية لأسباب عديدة، لكن الجانب الآخر احتفظ بجميع وثائقه، لهذا يمكن دراسة العلاقات بين البلدين بالاعتماد على المصادر العثمانية.

أحد هذه المصادر هي التقارير التي كان السفراء يرفعونها لحكوماتهم، وإن لم يكن معهوداً في تلك الفترة أن ترسل الدول سفراء مقيمين، بل كان السفير يرسل لمعالجة أمر ما، ثم يعود بعد أداء مهمته، فيكتب عادة تقريراً أشبه بالمذكرات، يتضمن معلومات قيمة في الغالب عن ذلك البلد، وحتى عن عادات أهله وتقاليدهم.

إبان ظهور الصفوية، كان السلطان بايزيد الثاني يحكم السلطنة العثمانية، ويبدو أنه لم يرغب بالحروب، ولهذا لم يستعجلهم بالقتال، فساد الترقب والحذر على علاقتهما، والتزما بحسن الجوار، وقد نقل

عن بايزيد الثاني أنه كان سلس الطبع، يحب الأدب والفلسفة، ولم يفكر بالفتوحات ولا بالمعارك، وكان يبادل الصفوية رسائل ودية، لكن بعد مضي فترة أحس بالخطر على حدوده الشرقية، إذ قامت السلطة الجديدة بتحريك التركمان عليه، فقابلهم باضطهاد الشيعة في حكومته، لمنع انتشار الأيديولوجية الصفوية[9].

وفي ما يلي نتابع تفاعلات العلاقة بين هاتين الدولتين في فترة حكم كل من ملوك الصفوية:

إسماعيل الصفوي (1501-1524م)

تولى إسماعيل الصفوي زعامة التنظيم سنة 1494م، واستولى على مناطق كيلان، ثم واصل توسعه من 1499 وحتى 1501، حيث سيطر على الحكم في أنحاء إيران كافة، ثم قام بطرد القرة قويونلو سنة 1507م، واستولى على العراق، ودخل بغداد عام 1508م. وأقر المذهب الشيعي الاثني عشري مذهبا رسميا للدولة، لكنه انهزم أمام العثمانيين في موقعة جالدران سنة 1514م، وتوالت الحروب بينه وبين العثمانيين على الحدود الغربية من البلاد من جهة، وبين الأوزبك (الشيبانيون في بخارى)، على الحدود الشرقية من جهة أخرى[10].

---

(9) للمزيد من الاطلاع راجع: أبو الحسن علوي بن حسن عطرجي، الصفويون والدولة العثمانية، راجعه وقدم له: محمد بن حسن بن عقيل موسى، دار الأندلس الخضراء.

(10) المرجع السابق نفسه.

إن أهمية العراق بالنسبة للصفوية تكمن في عدة عوامل، يتجسد العامل السياسي في القضاء على ما تبقى من دولة القرة قويونلو، والعامل الاستراتيجي هو موقع العراق كرابط بين الشرق والغرب، وطريق الحرير وتجارة الشرق عبر الخليج، أما العامل الاقتصادي، فيرتكز على خصوبة أرض العراق، ومردوداتها على الخزينة الصفوية، والعامل الأيديولوجي، المذهبي، يتمثل في العتبات المقدسة لدى الشيعة في النجف وكربلاء وبغداد.

معركة جالدران (أو شالدران)

نتوقف عند هذه المعركة أكثر من غيرها، نظراً للدور المحوري الذي لعبته في رسم علاقات الدولتين الصفوية والعثمانية، فحين فرض الشاه إسماعيل المذهب الشيعي على شعبه، وأعلنه مذهباً رسمياً للدولة في إيران، كانت ردود الفعل عنيفة، خصوصاً أن كثيراً من سكان المدن الرئيسية في إيران مثل تبريز كانوا من أهل السُنَّة[11]، لهذا قام باستمالة قبائل القزلباش التركية العلوية، مما جعلها عماد جيشه، وقد كانت تلك القبائل متذمرة أساساً من التدابير المالية والإدارية العثمانية، فهيأ ذلك السبيل لحدوث اضطرابات كبيرة في الأناضول[12].

وقد اعتمد إسماعيل عليهم في القضاء على جميع معارضيه، كما في فرض المذهب الشيعي وأكره الناس عليه، فقضى على دولة آق قويونلو

---

(11) علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط، الطبعة الثانية، بيروت: دار المعرفة، 2005م، صص 200 و201.

(12) فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2003م، ص16.

(دولة تركمانية)، وكانت حائلاً بينه وبين العثمانيين، فباتت الدويلات الكردية والقبائل التركية في جبال طوروس الصغرى، والأقليات المسيحية في أرمينيا كلها ممتلكات للشاه حسب ادعائهم[13]، حتى احتل بغداد عام 1508م، فهدم ما كان فيها من قبور أئمة أهل السنّة، وذبح جماعة من علمائهم[14].

اتسمت العلاقات بين الصفويين والعثمانيين في هذه الفترة بالفتور، فمنذ بداية تسلم السلطان سليم الأول الحكم، وصله سفراء البندقية والمجر ومصر وروسيا لتقديم التهاني، وأبرم بدوره معهم هدنة لفترات طويلة[15]، لكن لم يصله سفير من إيران[16]، وكان سليم الأول ينظر بعين الارتياب إلى تحركات الصفويين، لاسيما بعد إرسال الشاه إسماعيل وفداً ضخماً إلى قانصوه الغوري سلطان مصر، ضم 200 "عبد" لإبلاغه بالحرب المتوقعة، ودعوته للتحالف ضد السلطان سليم[17]، وحذره من عدم الاتفاق، إذ سوف تحارب العثمانية كلا منهما على انفراد، وستقضي عليه[18].

عزم سليم على مهاجمة خصمه الصفوي، وتوجيه ضربة قاصمة له قبل أن يستعد للنزال، لذلك أرسل وفداً إلى المماليك، داعياً إياهم إلى

(13) ستيفن لونكيرك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط، ط 5، 2004م، ص33.

(14) المرجع السابق، ص32.

(15) محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص73.

(16) فاضل بيات، مرجع سابق، ص17.

(17) المرجع السابق، ص17.

(18) محمد فريد المحامي، مرجع سابق، ص74.

التحالف، لكن المماليك آثروا التزام الحياد بعد استشارات طويلة، على الرغم من ميولهم للصفويين[19]، وبعد أن فرغ السلطان سليم من حل مشاكله مع إخوته، وعقد الصلح مع جيرانه الأوروبيين، لاسيما المجر، أمر بإحصاء عدد الشيعة المنتشرين في الولايات المتاخمة لبلاد العجم بشرق الأناضول، وقتلهم جميعا، ويقال إنهم كانوا حوالي 40 ألفا من القزلباش[20]، وكانت هذه المجزرة رداً على مجازر الصفويين في حق سنّة العراق وتبريز وأذربيجان[21]، كما أراد السلطان سليم استباق الأحداث، والقضاء على أي تمرد قد يحصل في المستقبل.

ثم جمع السلطان سليم الأول العلماء والوزراء ورجال الحرب في مدينة أدرنة في 19 من محرم عام 920هـ/16 مارس(آذار) 1514م، وذكر لهم خطورة إسماعيل الصفوي في إيران، وأنه اعتدى على حدود الدولة العثمانية، وتعامل بعنصرية مع أهل السنَّة والجماعة في دولته، وذلك وسط آسيا والهند وأفغانستان، فعليهم الذب عن إخوانهم في تركيا والعراق ومصر، وأنه يرى ضرورة الجهاد المقدس ضد الدولة الصفوية، فأفتى رجال الدين بذلك[22]، وقام السلطان سليم بمجموعة استعدادات داخلية وخارجية، ومجموعة مراسلات قبل تحركه للقتال.

---

(19) المرجع السابق، ص74.

(20) فاضل البيات، مرجع سابق، ص17.

(21) علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص201.

(22) المرجع السابق، ص 202.

وأخيرا وقعت الواقعة يوم الأربعاء 2 رجب 920هـ/ الموافق 23 أغسطس (آب) 1514م، في جالدران بين قوات الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليم ياوز الأول، وقوات الدولة الصفوية بقيادة إسماعيل الأول، وانتهت بانتصار القوات العثمانية، واحتلالها تبريز عاصمة الدولة الصفوية، ما أدى إلى وقف التوسع الصفوي لمدة قرن من الزمن، وجعل العثمانيين سادة الموقف، وأنهى ثورات العلويين داخل الإمبراطورية. وجدير بالذكر أن لجوء ابن أخ السلطان العثماني إلى إيران كان الشرارة التي أشعلت نار الحرب.

استولى العثمانيون نتيجة هذه المعركة على تبريز عاصمة الدولة الصفوية، ومناطق من عراق العجم، وأذربيجان وأراضي الأكراد، وشمال العراق، ثم اتجهوا صوب الشام، وتوالت انتصاراتهم على المماليك حلفاء الصفويين في معركة مرج دابق، وكانت كفة الجيش العثماني راجحة منذ بداية المعركة، فقد كانوا أكثر عددا وأفضل تسليحا من الصفويين، وقد أصيب الشاه إسماعيل في هذه المعركة، وكاد يُقضى عليه لولا فراره من المعركة، تاركاً كل ما يملكه لقمة سائغة لسليم الأول وجنده، كما وقعت زوجته تاجلو خانم في أسر القوات العثمانية[23]، ولم يقبل السلطان ردها إلى زوجها، بل زوجها أحد كتابه انتقاما من شاه إسماعيل[24].

(23) فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، الطبعة الأولى ليبيا، بنغازي: دار الكتب الوطنية، 2003م.

(24) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت: دار الجيل، 1977م، ص74.

احتل سليم الأول تبريز، عاصمة الصفويين، مما حدا بالصفويين إلى التفكير في تغيير عاصمتهم إلى مكان أقل عرضة للهجوم[25]. وبعد الانتصار، قرر السلطان سليم إخلاء المدينة، ناقلا معه أبرز تجارها وحرفييها وعلمائها إلى الأستانة، وإن لم يحتفظ لنا التاريخ بالكثير عن دور هؤلاء، لكن -بالتأكيد- كان لنزوح عدد كبير من التجار والعلماء والحرفيين في آن واحد من مجتمع لآخر آثار وتبعات اجتماعية وثقافية.

آثار وتبعات المعركة

أسفر انتصار سليم الأول عن نهوض رؤساء كردستان -وكانوا من السنَّة- لمساندة العثمانيين، فأعلنوا ولاءهم له، ولم يمض وقت طويل حتى انضمت 23 مدينة للحكم العثماني، على الرغم من الاستحكامات العسكرية التي أقامها الصفويون فيها، فعقد السلطان معهم اتفاقية صداقة وتحالف، وذلك بفضل جهود الشيخ إدريس البدليسي، والذي

---

(25) لا يسع المقام لتناول تفاصيل الحرب. للاطلاع راجع المصادر التالية:
- عباس إسماعيل صباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية: الحرب والإسلام بين العثمانيين والصفويين، ط1، بيروت: دار النفائس، 1999م، ص128 فما بعد.
- محمد بن احمد بن اياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة: الهيئة المصرية العامة، 1984، ج4، ص384.
- نبيل عبدالحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث، مكتبة الطالب الجامعي، ط 1988، ص435.
- علي الصلابي، مرجع سابق، ص204.
- أحمد فؤاد متولي، وهويدا محمد فهمي، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، القاهرة، كلية آداب عين شمس: ايتراك للنشر والتوزيع، ص188.
- محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص74.
- فاضل بيات، مرجع سابق، ص18.

نصبه السلطان كمفوض للإدارة الأهلية بتلك الأقاليم، مكافأة لما قدمه من خدمات للسلطنة[26].

توسعت رقعة حكم العثمانيين، ومكنهم الانتصار في هذه المعركة من التحكم بالطرق الرئيسية الاستراتيجية من الأناضول عبر القوقاز وسوريا وإيران[27]، كما مكنهم ذلك من تنظيم خطوط الدفاع والهجوم لتلك المناطق، وكذلك من السيطرة على طرق التجارة العالمية، وخاصة الحرير الفارسي، من تبريز إلى حلب وبورصة، مما در عليهم دخلا مهما، وأخيراً استطاعوا بسيطرتهم على المصدر الرئيسي لتجارة الرقيق في القوقاز، الضغط على المماليك من عدة جهات خلال تلك الفترة المهمة[28].

على الرغم من أن جالدران كانت معركة عنيفة، هُزم فيها الصفويون، إلا أنها لم تكن حاسمة، ولم تضع حداً للصراع بين الطرفين، وظل الطرفان يتربصان العداء ببعضهما، فبعد هزيمة إسماعيل و تمرّد الأقاليم الكردية السنِّية على الحكم الصفوي، ووقوفهم إلى جانب السلطان سليم الأول، سعى إسماعيل لأخذ الثأر، وحرك بعض قادة القزلباش ليغيروا على نواحي أرزنجان، لكن هزمهم العثمانيون، واحتلوا ديار بكر وماردين[29] وسائر مدن كردستان، وأصبح الجزء الأكبر من أرض الأكراد

---

(26) عباس إسماعيل صباغ، مرجع سابق، ص132.

(27) أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، بيروت: دار الشروق، 1998م، ص81.

(28) أحمد فؤاد متولي، تاريخ الدولة العثمانية، ص194.

(29) أبو الحسن علوي بن حسن عطرجي، الصفويون والدولة العثمانية، راجعه وقدم له: محمد بن حسن بن عقيل موسى، دار الأندلس الخضراء، 6/1/1414هـ. نقلا عن كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، ص ص114 و125.

في أيدي العثمانيين، وتحدد الخط الفاصل بين الدولتين، وبهذا أصبح من الصعب على إيران أن تتوسع في النواحي الغربية[30].

أدت نتائج المعركة إلى اهتزاز موقع الشاه في العراق، مما أدى إلى انضمامه لاحقا للعثمانيين[31]، واستمر الشاه قويا داخل إيران إثر انسحاب السلطان سليم من تبريز، فقد استطاع الشاه أن يُلملم قواته، وأن يقوم ببعض المناوشات الخفيفة إبان انشغال السلطان في الشام ومصر[32].

دفعت سياسة الخنق الاقتصادي التي مارسها السلطان سليم ضد الصفويين بالشاه أن يبحث عن حليف قوي، وقد توفر ذلك في البرتغاليين النشطين في البحار، فعقد معهم معاهدة عوضته خسارة بعض النقاط الاستراتيجية التي خسرها للعثمانيين[33]، وكان البرتغاليون أنفسهم يبحثون عن فرصة كهذه لفك الضغط العثماني عليهم[34]، ونصت الاتفاقية بين الشاه إسماعيل والبوكرك، الحاكم البرتغالي في الهند على أربع نقاط، هي:

1- تصاحب قوة بحرية برتغالية حملة إيران على البحرين والقطيف.
2- تتعاون البرتغال مع إيران في إخماد حركات التمرد في بلوشستان ومكران.

---

(30) أحمد الخولي، الدولة الصفوية –تاريخها السياسي والاجتماعي– علاقتها بالعثمانيين، مكتبة الأنجلو المصرية، 1981، ص81 و82.
(31) محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص90.
(32) عباس إسماعيل صباغ، مرجع سابق، ص134.
(33) علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص206.
(34) أحمد الخولي، ص87.

3- تتحد الدولتان في مواجهة الدولة العثمانية.

4- تصرف حكومة إيران النظر عن جزيرة هرمز، وتوافق على أن يبقى حاكمها تابعاً للبرتغال، وأن لا تتدخل في أمورها الداخلية[35].

كانت فينيسيا (البندقية) من الدول المتضررة تجارياً بسبب قضاء العثمانيين على الدولة البيزنطية، وإغلاقها الطريق الرئيس للتجارة بين أوروبا وآسيا، فأرسل الشاه إسماعيل السفراء إلى بلاط فينيسيا، طالباً الهجوم على العثمانيين عن طريق البحر، على أن يقوم هو بالهجوم من ناحية البر، بشرط أن تسترد فينيسيا قواعدها التي فقدتها في البحر الأبيض المتوسط[36]، ومن الدول التي سعت إيران لإقامة علاقات معها بهدف التخلص من الدولة العثمانية، أسبانيا والمجر، حيث بعث الشاه إسماعيل برسالتين إليهما، طالباً عقد معاهدة صداقة وتعاون، كما عرض فكرة الاتحاد بغرض سحق الأتراك، حسب تعبيره[37].

وعلى الرغم من مرض السلطان سليم في 926هـ/ 1520م، إلا أنه فكر في الخروج على رأس جيش لغزو إيران مرة أخرى، لكنه مات في الطريق في الثامن من شوال من العام نفسه، وشجعت وفاة السلطان سليم الأول، إسماعيل على الانتقام من العثمانيين، غير أن المنية عاجلته هو أيضا، فمات متأثراً بمرض السل[38].

---

(35) أحمد الخولي، مرجع سابق، ص ص91 و92، ونبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، ط1، مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، 1988م، ص ص436 و437.

(36) أحمد الخولي، مرجع سابق، ص93.

(37) المرجع السابق، ص94.

(38) المرجع السابق، ص83.

طهماسب الأول (1524-1576م)

بعد وفاة الشاه إسماعيل، جاء عهد ابنه طهماسب، فكان عصره امتداداً لعصر أبيه من حيث الصراع مع المعسكر السُنِّي، بجناحيه العثماني والأوزبكي، وكان الحاكم العثماني آنذاك هو السلطان سليمان القانوني، فأعد العدة لغزو الدولة الصفوية، وعند سماع الصفويين بذلك اتصلوا بملك المجر ليظاهرهم على العدو المشترك، فرد عليهم السلطان سليمان بإعدام الأسرى المعتقلين لديه، وقرر توجيه حملة قوية إلى إيران، إلا أنه حوَّل قواته ضد المجر أولاً بدلاً من إيران، وذلك نظراً لحيوية تلك الجبهة وأهميتها له، والتي شكلت الهدف الرئيس في مواجهة المسيحيين[39]، وقد خيم الجوع والقحط على إيران سنة 934هـ/ 1528م[40]، كما ساد الركود في علاقاتها الخارجية.

استرجع العثمانيون العراق، وكان طهماسب قد غزا بغداد واحتلها، على الرغم من أن حاكمها دافع عنها دفاعاً مستميتاً، فترك السلطان سليمان اسطنبول، وعبر الحدود متجهاً إلى تبريز، وعيّن إبراهيم باشا قائداً للجيش الذي دخل تبريز دون صعوبة[41]. تحرك الجيش العثماني نحو بغداد في الشتاء، ودخلها السلطان سليمان في 27 جمادى الأولى 941 الموافق 3 ديسمبر (كانون الأول) 1534، وبقي فيها حتى الربيع لتنظيم

---

(39) نبيل عبد الحي رضوان، مرجع سابق، ص ص438 و439.

(40) احمد كتابي، بجوهشي در زمينه جمعيت شناسي تاريخي إيران، فصلية جمعيت، العدد 25 و26، ص ص34 إلى 58.

(41) نبيل عبد الحي رضوان، مرجع سابق، ص441.

الإدارة في الولايات الجديدة وتقوية وسائل الدفاع، وأعلن إلحاق العراق الدائم بالدولة العثمانية، فانتهز طهماسب انشغال السلطان سليمان بالعراق، وعاد إلى تبريز واستولى عليها. فأرسل السلطان سليمان فرقة من جيشه لاسترجاع تبريز، لكن الجيش الصفوي هزمها[42].

اتجه السلطان سليمان نحو إيران بجيش كبير مزود بالعدة والعتاد، ولما علم طهماسب بذلك فرَّ إلى الجبال بجيشه، فدخل السلطان سليمان تبريز مرة أخرى، وسيطر على كثير من المناطق حولها، ثم استولت القوات العثمانية بعد ذلك على البصرة، وامتد الحكم العثماني إلى الأحساء[43]، وكان الملك طهماسب يستخدم سياسة الأرض المحروقة، فيدمر مدن بلاده ليوقف تقدم العثمانيين، واستطاع طهماسب جعل أعدائه في موضع الحياد بسياسته المتوازنة وتسويته للمشاكل الدينية؛ كما شجع حركتي الآداب والفنون.

وإجمالاً خاض الملك طهماسب الأول أربعة حروب مع السلطان سليمان القانوني، وبعد ذلك عقد السلطان سليمان اتفاقية صلح مع الشاه طهماسب في 8 رجب عام 963هـ (صلح أماسيه في عام 1555م)، واعترف طهماسب بموجب تلك الاتفاقية بالحدود العثمانية التي تحيط بالأراضي التي كانت تحكمها الدولة العثمانية سابقاً، إضافة إلى ما سيطرت عليه في الفتوحات لاحقاً، كما تعهد بالكف عن دعوته للتشيع، وعدم التعرض إلى الحدود العثمانية[44]، وكانت أمنية طهماسب أن تستقر العلاقات بينه وبين العثمانيين لأنه لا قبل له بهم.

---

(42) أحمد الخولي، مرجع سابق، ص116.

(43) نبيل عبدالحي رضوان، مرجع سابق، ص443.

(44) المرجع السابق، ص445.

إسماعيل الثاني (1576-1578م)

خلف الشاه طهماسب ابنه إسماعيل الثاني، وقيل إنه كانت لديه ميول سنّية، إذ تلقى العلم على يد معلم سنّي، وكان يرغب في إعادة المذهب السنّي إلى إيران[45]، لكنه سرعان ما قتل مسموماً على يد رجال القزلباش، ولم تحدث في فترة حكمه حروب مع الدولة العثمانية.

محمد خدا بنده (1578-1587م)

خلف إسماعيل الثاني أخوه الشاه محمد خدابنده، وفي عصره حدثت معارك عنيفة مع الدولة العثمانية، وذلك عندما وجد السلطان العثماني مراد الثالث الأوضاع متردية في إيران، فرآها فرصة للسيطرة عليها، والقضاء على الدولة الصفوية، على الرغم من معاهدة الصلح بينهما، فأمر بالهجوم على إيران بقيادة مصطفى باشا، وتحرك الجيش نحو الأراضي الإيرانية وكان النصر حليفه، حتى احتل قلعة تفليس[46].

عباس الأول (1587-1629م)

بعد وفاة الشاه محمد خلفه ابنه عباس الكبير، الذي يعد من القادة الأقوياء، وقد تطورت إيران في زمنه. أدرك الشاه عباس بأن لا قبل له بمواجهة العثمانيين الا بتأسيس جيش حديث مجهز، فأقدم قائد جيشه

---

(45) المرجع السابق، ص149.

(46) المرجع السابق، ص ص166-164.

"الله وردي خان" على تأسيس وتجهيز جيش حديث، مستعيناً بالأوروبيين الذين كانوا في قتال مع العثمانيين، كما أن البريطانيين وخاصة إخوان شرلي أعانوه على بناء جيش حديث[47]، فحقق انتصارات على الدولة العثمانية التي بدأ الضعف يدب فيها، وهاجم القوات العثمانية في تبريز وأخرجهم منها، وبدأ الزحف إلى المناطق الأخرى.

وقّع الطرفان عدة معاهدات صلح، على أن لا يتعديا حدودهما، لكن الجانب الصفوي كان دائم النقض لهذه المعاهدات، لأنه كان يشعر بضعف الدولة العثمانية في ذلك الحين[48].

ساهمت تلك الحروب التي قادها الشاه عباس ضد الدولة العثمانية في إضعافها، وتشتيت جهدها عن مواجهة أوروبا، وكانت للشاه عباس اتصالات مع الجانب الأوروبي، فقدم عروضا للإسبان عن طريق البنادقة، كي يتقاسم أراضي الدولة العثمانية معهم، فتحصل الأولى على الجزء الأوروبي وتستأثر الثانية بالآسيوي، ولم يكن هذا العرض سوى أحد العروض الكثيرة التي حملها السفراء الإيرانيون[49].

---

(47) راجع: عبد الحسين نوايي، وعباسقلي غفاري فرد، تاريخ تحولات سياسي، اجتماعي، اقتصادي وفرهنكي إيران در دوران صفوية، (تاريخ التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في إيران عهد الصفوية)، ط1، طهران: سمت، آبان 1381ش، (نوفمبر/ تشرين الثاني 2002م)، الفصل السابع.

(48) احمد الخولي، مرجع سابق، ص ص188-186.

(49) محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، ط1، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ص 72.

وبعد مرحلة سادتها موجات من الاضطرابات، استقر حال الدولة في عهد عباس الأول، حيث قام سنة 1601م بضم البحرين (كامل الساحل الشرقي من جزيرة العرب)، واستولى على أذربيجان سنة 1603م، ثم شيراز، وأرمينيا وأجزاء من أفغانستان سنة 1608م. كما ضم إليه العراق وكردستان مرة أخرى سنة 1624/23م، أما على الصعيد الداخلي فقد قام بإصلاحات شاملة في الجيش، واستعان ببعض العبيد المسيحيين في قيادة هذا الجيش، وعمّر مدينة أصفهان، وجعلها من المدن المهمة على الصعيد العالمي آنذاك، وبسيطرته على الخليج، استطاع خوض التجارة، فانتعش اقتصاد البلاد، وتم في عهده إقرار العديد من المراسيم الخاصة بالقصور، والتي تتعرض لواجبات الحاشية تجاه الشاه.

احتل الشاه عباس بغداد وأغلب نواحي العراق عام 1032هـ/1622م، وفي شوال عام 1033هـ/1623م أصبحت هذه الأراضي تحت سيطرة إيران بموجب اتفاق أبرمه مع العثمانيين (معاهدة اسطنبول 1590م)[50].

الصفي الأول (1629-1642م)

كان للشاه عباس أربعة أبناء سَمل أعينهم، وأذاقهم الجوع والذل والهوان، وقتلهم جميعا خوفاً على سلطانه[51]، فلم يبق بعد موته سوى

(50) راجع: عبد الحسين نوايي، وعباسقلي غفاري فرد، تاريخ تحولات سياسي، اجتماعي، اقتصادي وفرهنكي إيران در دوران صفوية، (تاريخ التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في إيران عهد الصفوية)، ط1، طهران: سمت، آبان 1381ش، (نوفمبر/ تشرين الثاني 2002م)، الفصل السابع.

(51) احمد الخولي، (ن. م)، ص 208، وعباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام: من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، نقله من الفارسية وقدم له وعلق عليه: د. محمد علاء الدين منصور، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1410هـ، ص 688.

حفيده المراهق سام ميرزا، لذلك هزّ الضعف والانهيار الدولة الصفوية بموته، تولى الحكم سام ميرزا عام 1038هـ- 1628م، وهو ابن السابعة عشر عاما. سمى نفسه "صفياً"، وهو اسم أبيه الذي قتله جده الشاه عباس[52].

حدثت في عهد صفي عدة اشتباكات بين الصفويين والعثمانيين[53]، فقد حاول العثمانيون استرداد بغداد مرتين، خسروا في الأولى، ونجحوا في الثانية، حيث حاصروها خمسين يوماً بقيادة محمد باشا في عهد السلطان مراد وذلك في عام 1048هـ- 1638م[54].

يبدو أن السلطان صفي ورث عن جده عباس الكبير تصفية الأهل خوفا على السلطان، إذ ينقل تاريخ (روضة الصفا) أنه أمر بسمل أعين عدد كبير من أهله وبني عمومته خوفاً من طمعهم بالسلطة عام 1042هـ/1632م، وفي العام نفسه، أعدم بعضاً من هؤلاء العميان المساكين، الذين كانوا يتضورون جوعاً[55]، حتى أنه قتل زوجته بخمس طعنات خنجر، وكذلك اجتثّ جذور الأسر الإيرانية المخلصة من قبيل إمام قلي خان، ونفى كنج علي خان من إيران[56].

---

(52) احمد الخولي، (ن. م)، ص 210.

(53) لمعرفة تفاصيل الحروب التي خاضتها الصفوية وصفي شاه بالذات راجع: خانبابا بياني، تاريخ نظامي إيران: جنكهاي دوره صفوية، (تاريخ إيران العسكري: حروب الصفوية)، ط1 (التحرير الثاني)، طهران: مرشد، 1380ش، (2002م).

(54) احمد الخولي، (ن. م)، صص 216-213.

(55) ابو الفضل عابديني، متن منقح معاهده (زهاب) بين إيران وعثماني (1049هـ، 1639م)، (النص المنقح لمعاهدة زهاب بين إيران والعثمانية)، كزارش كفت وكو، العدد 16، فروردين وارديبهشت 1384ش، (نيسان وآيار 2005م)، صص 122 و123.

(56) ابو الفضل عابديني، العلاقات السياسية بين الصفويين والعثمانيين، منذ معاهدة زهاب حتى سقوط اصفهان، فصلية نصوص معاصرة، العدد 9، شتاء 2007م، ص280.

معاهدة قصر شيرين أو معاهدة زهاب

وهي إحدى أهم المعاهدات بين الصفوية والعثمانية، والتي عقدت في هذه الفترة، ولم يحتفظ لنا التاريخ بالنص الأصلي لهذه المعاهدة على الرغم من أهميتها، لكن هناك عدة نسخ عنها، تختلف في أمور جزئية.

عقدت هذه المعاهدة بين الشاه صفي والسلطان مراد الرابع عام 1049هـ، 17 مايو (آيار) 1639م[57]، وشكلت قاعدة الانطلاق في العلاقات الإيرانية العثمانية في القرون الاخيرة، حيث أنهت قرناً من الحروب الضارية وعيّنت الحدود، وهي ذاتها قائمة إلى اليوم، عدا بعض التعديلات الطفيفة، فبقيت القفقاز بموجبها ضمن الحدود الإيرانية، وانتزعتها روسيا فيما بعد، أما العراق وأغلب الشرق الأوسط فأصبح تحت حكم العثمانيين[58].

وكان لمعاهدة قصر شيرين تبعات سياسية، واقتصادية، وثقافية، إذ حكمت العثمانية بموجبها على قسم من أذربيجان، كما تولّت إدارة العراق بما فيه العتبات المقدسة عند الشيعة، التي كان الإيرانيون يقصدونها للزيارة، أما الجيش الإيراني فمال للخمول والتحلل تدريجياً، إثر ظروف الأمن والدعة[59].

---

(57) ابو الفضل عابديني، متن منقح معاهده (زهاب) بين إيران وعثماني (1049هـ، 1639م)، مرجع سابق، ص ص124 و125.

(58) ل. دوري، روابط إيران با امبراتوري عثماني در سده هاي هيجدهم ونوزدهم، ترجمة: حسن زندية، (ترجمة الفصل الثامن من كتاب تاريخ الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة للمؤلف).

(59) ابو الفضل عابديني، متن منقح معاهده (زهاب) بين إيران وعثماني (1049هـ، 1639م)، مرجع سابق، ص ص124 و125.

وتمّ تبادل السفراء بين البلدين بعد هذه المعاهدة، وبالطبع لم يكن آنذاك إرسال السفراء المقيمين معهوداً، بل كان السفراء يرسلون لأداء مهمة ما، أو إيصال رسالة ما، فقد تم بعد هذه المعاهدة إرسال مجموعة من السفراء من الجانب الإيراني، منهم: محمد قلي خان، ساروخان، إبراهيم خان إيكرمي، محمد خان، بير علي، كلب علي خان، عبد المعصوم، مرتضى قلي خان، وفي المقابل أرسل العثمانيون بستاني، إسماعيل آقا، عبد النبي جاوش، محمد بيك، محمد باشا، النحيفي، أحمدي الدري أفندي[60].

عباس الثاني (1642-1666م)

بعد وفاة الشاه صفي، تولى ابنه عباس الثاني الملك وهو ابن التاسعة، في الخامس عشر من صفر عام 1052هـ-14مايو (أيار) 1642، فكان الميرزا تقي وصياً عليه، وهو أحد الأمراء المقربين من أبيه[61]، وكان هذا الشاه مسالماً، ولم تحدث في عهده اشتباكات مع الدول المحيطة بإيران.

اتسمت علاقة الشاه عباس الثاني بالعثمانية بالود، وتم تبادل الهدايا والرسائل بينهما، فكانا يذكّران بعضهما بأهمية الوفاء بالعهود، أرسل عباس الثاني رسالة إلى السلطان العثماني إبراهيم خان يدعوه فيها إلى توثيق عُرى الصداقة، وقد جاء فيها: "... لا يخفى عليكم أنّ الحكمة

---

(60) ابو الفضل عابديني، العلاقات السياسية بين الصفويين والعثمانيين، منذ معاهدة زهاب حتى سقوط اصفهان، مرجع سابق، ص ص288 و289.

(61) احمد الخولي، مرجع سابق، ص216.

البالغة تقتضي انتهاء الدنيا لا محالة، لذلك فكلّي ثقة أنّ الملك الذي هو ظلّ الله، لا زال ينظر إلى الآية ﴿وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولا﴾ (الإسراء: 34)، ويعمل بموجبها في هذا الطريق المبارك. ..." وأجابه الملك العثماني بالتأكيد على المضامين نفسها[62].

عاشت الدولة مجدها الأخير أثناء عهد عباس الثاني، فقد كثف من التبادل التجاري مع الدول الأوروبية عن طريق الشركات التجارية العاملة في المنطقة، كما قام ببعض الإصلاحات الداخلية، وضم عام 1648م أجزاء جديدة من أفغانستان إلى دولته[63].

الصفي الثاني (1666-1694م)

بعد وفاة عباس الثاني تولى الحكم ابنه صفي عام 1077هـ-1666م، وهو ابن العشرين ربيعاً، أطلقوا عليه اسم الشاه سليمان، ويعد من أشد سلاطين الصفوية فساداً، إذ قضى حياته بين الخمر والمجون[64]، ولم تحدث في عصره اشتباكات مع الدولة العثمانية، ويبدو أن حنكة الشيخ علي خان زنكنة، الوزير الأعظم للملك، لعبت دورا هامّا في استمرار الصلح بين الدولتين، وإفشال جهود الأوروبيين للوقيعة بينهما[65].

---

(62) ابو الفضل عابديني، العلاقات السياسية بين الصفويين والعثمانيين، منذ معاهدة زهاب حتى سقوط اصفهان، (م. س.)، ص290.

(63) ن. م.

(64) احمد الخولي، (ن. م)، ص 220.

(65) ابو الفضل عابديني، العلاقات السياسية بين الصفويين والعثمانيين، منذ معاهدة زهاب حتى سقوط اصفهان، (م. س.)، صص290 و291.

حسين الأول (1694-1722م)

بعد وفاة الشاه سليمان، تولى الحكم ابنه حسين ميرزا، ودار في عهده القتال مع الأفغان بعدما ظلمهم واضطهدهم، كما هاجم الروس إيران لضعف الدولة، فاستولوا على سواحل بحر الخزر بدءاً بدربند(66) حتى حدود إستراباد(67)، فاضطر الشاه إلى عقد اتفاقية مع الروس تنازل فيها رسمياً عن كثير من المناطق والمدن الإيرانية(68)، وانتهج حسين ميرزا الود في علاقته مع العثمانيين، ملتزماً بمعاهدة زهاب، وتم تبادل السفراء بينه وبين السلطان العثماني(69).

كانت أوضاع البلاد في تردٍّ مستمر، وتسربت الأخبار إلى دول الجوار، فكانوا يرسلون رسائل مودّة ومحبة إلى السلطان حسين، لكن رجال البلاط وبدافع الحسد والبغض كانوا يردونهم بما لا ينسجم مع الأدب ومراعاة الشأن، حتى أنهم أرجعوا كل السفراء بصورة سيئة إلى بلدانهم، وقد أدّى ذلك إلى عدم وقوف الدول المجاورة إلى جانب إيران في أيام محنتها، وأيام حصار أصفهان من قبل الأفغان(70).

---

(66) أبو الحسن عطرجي، مرجع سابق، نقلا عن بلدان الخلافة الشرقية، ص214.
(67) المرجع السابق، ص419.
(68) احمد الخولي، مرجع سابق، ص ص226-222.
(69) ابو الفضل عابديني، العلاقات السياسية بين الصفويين والعثمانيين، منذ معاهدة زهاب حتى سقوط اصفهان، مرجع سابق، ص292.
(70) مرجع سابق، ص ص 293 و294.

طهماسب الثاني (1722-1732م)

بعد مقتل حسين ميرزا، تولى الحكم ابنه الشاه حسين طهماسب الثاني، ولم يتجاوز آنذاك الثامنة عشر من عمره، وقد استمر النفوذ الأفغاني في عهده، وضيقوا الحصار على المدن الإيرانية.

فرّ طهماسب من قبضة الأفغان إلى تبريز، وأعلن نفسه ملكا هناك، وطلب المساعدة من العثمانيين، أعداء الصفويين التاريخيين، وانتهز العثمانيون الفرصة، خصوصاً وأن الروس سبقوهم إلى باكو واحتلوها، وشكلوا ثلاثة جيوش لاجتياح القفقاز وتبريز وعراق العجم (المناطق الجبلية في غرب إيران)، فخاضت هذه الجيوش معاركها من عام 1723 إلى 1725م وانتصرت في جميعها، فسيطروا على أذربيجان وكرمانشاهان وهمدان، ودحضوا الصفويين والأفغان، وسبقوا الروس ونصّبوا داود خان بلقب شروان شاه كملك تحت إمرتهم[71].

عقد طهماسب معاهدات مع العثمانية في الأعوام 1724 و1727 و1732م، لكن لم تكن لهذه الاتفاقيات أيّة قيمة في الظروف التي كان يعيشها الملك الصفوي. شكّل طهماسب حلفاً مع نادر شاه قائد الأفشاريين لمنع هذه الهجمات ولإنقاذ الحكم[72]، فكان هذا الحلف الضربة القاضية

(71) راجع التفاصيل في: ل. دوري، روابط إيران با امبراتوري عثماني در سده هاي هيجدهم ونوزدهم، مرجع سابق.

(72) احمد الخولي، مرجع سابق، ص232.

لملك الصفويين، إذ استبسل نادر شاه في القتال، وكان محبوباً لدى القبائل، وخاض معارك كثيرة على جميع الجبهات، وكان النصر حليفه فيها، فحين تمكن من الأمر، اعترف الجميع له بالفضل في إنقاذ إيران من الهجمات الخارجية، وبدوره طالب بعزل الشاه طهماسب، وأعلن ابنه الرضيع الشاه عباس الثالث حاكماً مكانه، واحتفظ بالوصاية عليه لنفسه، وقتل طهماسب و ابنه أخيرا واستولى هو على الحكم[73].

آثار الصدام بين الصفوية والعثمانية

ترك الصدام العنيف والمرير بين أكبر دولتين إسلاميتين في عصرهما -في ظل ظهور قوى أوروبية جديدة في العالم آنذاك- آثارا تاريخية كبيرة استمرت قروناً مديدة، نفصلها فيما يلي:

الآثار السياسية

يرى بعض الباحثين أن الحروب الصفوية من أهم أسباب تردي الدولة العثمانية، وتحولها من القوة إلى الضعف، إذ كانت هذه الحروب من الضراوة وطول الأمد ما يكفي لإنهاك العثمانيين وإضعافهم، وإنهاك قدرتهم على الصمود في الجبهة الأوروبية، مما يعني انحسار انتشار المسلمين في أوروبا[74]، فكثير من الحروب أجبرت القادة العثمانيين على

---

(73) المرجع السابق، ص241.
(74) المرجع سابق، ص70.

الرجوع من أوروبا ليوقفوا الزحف الصفوي، كما حدث مع السلطان سليم العثماني، حين عاد من أوروبا ليواجه إسماعيل الصفوي، وذلك ما حدث بالضبط حين حوصرت النمسا لستة أشهر[75].

يُنقل عن بوسيك، سفير فرديناند في بلاط السلطان محمد الفاتح، أنه قال: إن ظهور الصفويين قد حال بيننا (الأوروبيين) وبين التهلكة (على أيدي العثمانيين)[76]. لقد أثر القتال الذي دار بين الدولة العثمانية والصفويين تأثيراً مباشراً على الدولة العثمانية، سواء في المجال العسكري أو اقتصاد الدولة.

الآثار الاقتصادية والتجارية

تضررت إيرادات الدولة العثمانية من الجمارك التي كانت تحصل عليها من الطرق القديمة في الأناضول، إذ أُقفلت معظم الطرق التجارية القديمة التي سادها الخطر، وصار التبادل التجاري بين الأقاليم الإيرانية والعثمانية محدوداً. فانخفض إيراد الدولة العثمانية من الحرير الفارسي، في حين تحولت سيطرة البرتغال على البحار الشرقية إلى حصار عام لكل الطرق القديمة بين الشرق والغرب -عبر الشرق الأوسط- والتي كانت آنذاك تحت سيطرة الدولة العثمانية[77].

---

(75) المرجع السابق، نقلا عن الحروب العثمانية الفارسية، ص61.

(76) المرجع السابق، ص ب من المقدمة.

(77) المرجع السابق، نقلا عن جهود الدولة العثمانية لإنقاذ الأندلس، ص438.

استفادت أوروبا من هذا الظرف اقتصادياً، حيث كان الاقتصاد الأوروبي متأثراً بشكل كبير بالحصار العثماني لقوافله ولمناطق النفوذ التجاري، فكسدت التجارة الأوروبية في البر، وهذا ما شجع البرتغاليين على سلوك طريق البحر لاكتشاف الطرق البحرية، لكن الأوروبيين وجدوا مشقة في ذلك، إذ تعرضت تجارتهم عن طريق البحر للحصار أيضاً، فقد تمكن العثمانيون من قطع طريق التجارة القديم الذي يربط أوروبا بالشرق[78].

من جهة أخرى، شكلت الأراضي العثمانية معبراً تجاريا للصفويين، فأول علاقات تجارية هامة بين إيران وأوروبا بدأت في العصر الصفوي عن طريق الأراضي العثمانية، لهذا سكن بعض التجار الإيرانيين في تلك البلاد منذ ذلك الحين، وقد تأثر هؤلاء بالإصلاحات العثمانية التي عرفت باسم "التنظيمات"، ولعبوا دوراً في نقلها إلى إيران، وقد كانت هذه الإصلاحات البذرة الأولى لنشوء حركة التنوير في إيران، والتي انتهت بالحركة الدستورية[79].

الآثار الثقافية والاجتماعية

شهدت الفترة الصفوية والعثمانية وما سبقها من مقدمات تاريخية -على الرغم من الخلافات والصراعات المريرة- علاقات ثقافية

---

(78) احمد الخولي، مرجع سابق، ص88.

(79) محمد تقي امامي، نقش تنظيمات عثماني بر نهضت روشنفكري إيران، كزارش كفت وكو، العدد 27، تير 1381ش، يوليو/تموز 2002، ص ص85 و86.

واجتماعية كبيرة بين الشعوب التي كانت تسكن أراضي الإمبراطوريتين. فمثلا كانت هناك موجات من هجرة العلماء من إيران إلى العثمانية، بدأت قبل مجيء الصفوية، ولعله كان بسبب الاضطراب الذي عاشته إيران لقرون من الزمن، ثم زادت الصفوية الطين بلة باضطهادها السياسي للسنّة خاصة، كما أن المجاعات التي حدثت في العصر الصفوي وخاصة الأخيرة، كانت أحد الأسباب لهجرات عامة إلى الأطراف، بما فيها العراق ومدن النجف وكربلاء بالذات، والتي كانت جزءاً من العثمانية.

فمن جملة العلماء الذين هاجروا من إيران إلى الدولة العثمانية إبان ظهور الصفوية:

علاء الدين الأسود (م 800هـ- 1397م) مدير مدرسة دينية؛ داوود القيصري (م 751هـ- 1350م) عالم فلسفة و متصوف؛ علاء الدين علي جلبي الفناري (القرن التاسع) عالم رياضيات و متصوف؛ شمس الدين نحيفي (م 841هـ- 1437م) كاتب؛ علاء الدين قوج حصاري (م 841هـ- 1437م) كاتب؛ قاضي زاده رومي (القرن التاسع) عالم هيئة؛ علاء الدين علي الطوسي (م 860هـ- 1455م) كاتب؛ فتح الله بن أبو يزيد الشرواني (القرن الحادي عشر) عالم هيئة؛ خير الدين خليل بن ابراهيم (القرن التاسع) عالم رياضيات؛ عبد الرحمن مؤيد زاده (860-922هـ 1455- 1516-م) كاتب؛ قطب الدين عجمي (م 841هـ- 1437م) طبيب؛ شكر الله شرواني (م 912هـ- 1506م) طبيب ومفسر؛ عطاء الله عجمي (القرن التاسع) طبيب ومفسر وعالم رياضيات؛ علاء الدين علي

القوشجي (القرن التاسع) عالم رياضيات؛ ميرم جلبي (931هـ - 1524م) عالم رياضيات؛ محمود بن محمد دلشاد شرواني (القرن التاسع) طبيب؛ حكيم عجمي لاري (القرن التاسع) طبيب؛ علاء الدين على بن محمد شاهرودي بسطامي (875هـ - 1470م) كاتب؛ كمال الدين طبيب (913هـ - 1507م)؛ بصيري خراساني جلبي (941هـ - 1534م)؛ علاء الدين علي أصفهاني (933هـ - 1526م) قاضٍ؛ مصلح الدين لاري (979هـ - 1571م) عالم في المنطق والهيئة؛ نظام الدين بيرجندي (934هـ - 1527م) عالم في الرياضيات والنجوم؛ مظفر الدين علي الشيرازي (922هـ - 1516م) عالم في الهندسة؛ علي بن أحمد الشيرازي (القرن العاشر) عالم في الرياضيات؛ مهدي الشيرازي (957هـ - 1550م) عالم في المنطق والفلسفة؛ محيي الدين محمد بن عبد الأول القزويني (966هـ - 1558م) قاضٍ؛ مولى معصوم (1010هـ - 1601م) قاضٍ؛ حسام الدين حسين (القرن العاشر) مدرس؛ مولى شريف (1031هـ - 1621م) قاضٍ؛ مولى شرف الدين (1009هـ - 1600م) مفتي؛ مولى عبد الرحيم (1105هـ - 1693م) مدرس؛ محمد بن سليمان كيلاني (1026هـ - 1617م) قاضٍ؛ عطري محمد أفندي (1032هـ - 1622) قاضي وخطاط؛ محمد أفندي (1092هـ - 1681م) قاضي؛ عجمي عمر أفندي (1138هـ - 1725م) طبيب؛ محمد أفندي (1116هـ - 1704م) عالم رياضيات، وغيرهم كثيرون[80].

---

(80) توفيق حيدر زاده، مهاجرت علماي إيران به امبراتوري عثماني، مجلة فرهنك، ع20 و21، زمستان 1375ش، بهار 1376ش، (شتاء وربيع 1997م)، صص 49 ـ94.

علماً أن بعضاً من هؤلاء كانوا من أصول عثمانية، لكنهم جاءوا لفترة إلى إيران ثم عادوا، وأغلبهم إيرانيون، وبالطبع لم تكن هجرة العلماء باتجاه العثمانية فقط، بل قصد جمع من العلماء مناطق أخرى من قبيل الهند والعراق، وقد لعبت الهجرات الجماعية دورا مهما في التقريب بين الشعوب، ونزع فتيل الاقتتال العقيم؛ كما كان لها بالتأكيد دور مهم في انتقال الأجواء الثقافية والهموم الفكرية، وتشكيل بذرة التقارب الفكري والتعامل الثقافي بين الشعوب.

الدولة الصفوية وأتباع الأديان والمذاهب الأخرى

د. علي الشيخ(*)

يتفق المؤرخون على أن قيام الدولة الصفوية (906هـ/1500م) كان نقطة تحول كبيرة في تاريخ إيران والشرق كله، فقد نجح أحفاد الشيخ صفي الدين، وخصوصاً الشيخ جنيد وابنه الشيخ حيدر، في نشر المذهب الشيعي بعد ما تشيعوا لأهداف سياسية، وتحولوا من شيوخ طريقة إلى دعاة دولة لها أهدافها السياسية، وأصبحوا قادرين على المشاركة في الأحداث السياسية في جميع أنحاء إيران، بل والبلاد المجاورة لها وخصوصاً العراق، ولكن ماذا كان موقف الصفويين من أتباع الأديان والمذاهب الأخرى؟

وهذا البحث يعرض لكيفية تعامل الدولة الصفوية مع المذاهب الإسلامية والأديان المتواجدة في إيران بشكل عام، ويفرد مبحثاً خاصاً بالثورات الدينية في العهد الصفوي.

(*) باحث وكاتب عراقي، أستاذ في الجامعات الإيرانية.

لأول مرة يعلن المذهب الشيعي الاثنا عشري مذهباً رسمياً لكل إيران في العهد الصفوي، وكان ذلك والدولة العثمانية في عنفوان مجدها وذروة ازدهارها، وكانت تعتبر الممثل الوحيد للخلافة الإسلامية للمسلمين قاطبةً، وبتمرد إيران على سلطة الخلافة العثمانية، وقيامها بتأسيس دولة شيعية منافسة للخلافة الرسمية، أدى ذلك إلى حروب ونزاعات بين الدولتين الإسلاميتين، وتمكنت الدولة الصفوية في عهد الشاه عباس الكبير (996-1038هـ/1588-1629م) من السيطرة على الأماكن المقدسة الشيعية في العراق، وأخرجت الحاميات العثمانية من مدينتي النجف وكربلاء.

كان أحد الدوافع الأساسية لتشيع الصفويين، هو التميز عن الخلافة العثمانية السنِّية، وتوحيد الشعوب الإيرانية تحت راية إمبراطورية شيعية على غرار الإمبرطورية العثمانية السنِّية في غرب العالم الإسلامي، ولكن قيام الدولة الصفوية على أساس المذهب الشيعي على يد الشاه إسماعيل الأول، حال دون تلاحم القبائل التركية الممتدة آنذاك من الشرق إلى غرب العالم الإسلامي في آسيا، وبالتالي قضت على الأواصر بين هذين العالمين التركيين.

وفي الحقيقة لم يفد تحول الصفويين من المذهب الشافعي إلى المذهب الشيعي سوى الفرس، الذين استغلوا ويستغلون المذهب الشيعي للحفاظ على هويتهم القومية الفارسية، وأهدافهم السياسية في المنطقة. يقول الباحث الاجتماعي الإيراني الشهير علي شريعتي: «الدولة الصفوية قامت على مزيج من القومية الفارسية، والمذهب الشيعي، حيث تولدت

آنذاك تيارات تدعو لإحياء التراث الوطني، والاعتزاز بالهوية الإيرانية، وتفضيل العجم على العرب، وإشاعة اليأس من الإسلام، وفصل الإيرانيين عن تيار النهضة الإسلامية المندفع، وتمجيد الأكاسرة»، فعلى أية حال، لولا الحروب المذهبية الطاحنة بين هاتين الدولتين التركيتين، والتي أزهقت فيها أرواح مئات الآلاف من المسلمين الأتراك، لكان العالم الإسلامي في وضع أفضل بكثير مما هو عليه الآن.

سياسة الصفويين المذهبية

تنحدر ميول الأسرة الصفوية للتشيع من طائفة من غلاة الشيعة، الذين كانوا يقطنون أراضي في آسيا الصغرى، التي كانت تحت السلطة الصفوية، ولهذا كان الحكام الصفويون، وخصوصا الأوائل منهم، بعيدين تماماً عن التشيع المعتدل[1]، فكانوا شديدي التعلق بالمذهب الشيعي، وحريصين على إرساء دعائمه، وقد بذلوا قصارى جهدهم في ترويج المذهب الاثني عشري الشيعي، وكانوا حريصين كل الحرص على القضاء على أي مذهب آخر يقلل من شأن المذهب الشيعي، وهذا التعصب الشديد دفعهم للبطش بجميع المذاهب الأخرى، التي كانوا يشعرون أن انتشارها يمثل خطراً على المذهب الاثني عشري، فقد كان الكثير من الشعوب الإيرانية سنّي المذهب، وكانت التجمعات الشيعية تتمركز في مدن محددة نحو: قم وكاشان والري، وبعد ما توّج إسماعيل الصفوي نفسه

---

(1) راجع: سفارتنامههاي إيران، ص ص22–24.

شاها على إيران، فرض المذهب الشيعي على الشعب كله، وجعله المذهب الرسمي للدولة، على الرغم من اعتراض بعض علماء المسلمين من شتى المذاهب[2]، ومن المعروف أن مستشاري الملك الشاب كانوا يخافون كثيراً من تشدده المذهبي وفرضه التشيع على الشعب، وعندما حذروه من احتمال رفض الشعب التشيع، أو عدم خضوعهم لملك شيعي، قال لهم بأنه مأمور من عند الله، وأن الله والأئمة معه وسيساندونه في هذه الدعوة، ثم قال: «إذا اعترض الشعب بأكمله فسأسل السيف من غمده، ولن أبقي أحدا من المخالفين حياً»[3].

كان الملوك الصفوية يعرفون جيداً أن تغيير المذهب الرسمي وفرض مذهب جديد، أمر لا يتم تطبيقه بسهولة، فاستدعوا عدداً من العلماء الشيعة من جبل عامل، لتبليغ المذهب الشيعي وتعليم المعتقدات والأحكام الشيعية لعامة الناس[4]، بعدما رفض علماء شيعة العراق الاستجابة لدعوتهم لأسباب دينية، باعتبار أن مشاركتهم في قيام دولة في عصر غيبة الإمام لا تجوز[5].

ومن مظاهر اهتمامهم الوافر بالتشيع، صيغة الأذان التي استنها الشاه إسماعيل الأول، وهذه الصيغة تضيف إلى الصيغة الإسلامية المألوفة في البلاد السنِّية المذهب عبارتي: أشهد أن علياً ولي الله، وحي على خير

---

(2) شاه إسماعيل أول، 694–697.

(3) زندكاني شاه عباس أول، ج 3، ص890.

(4) مهاجرت علماي شيعة از جبل عامل به إيران در عصر صفوي، 156–160.

(5) راجع: كنش دين و دولت در ايران عصر صفوي، ص31–41.

العمل. وبعد انتصار الشاه إسماعيل الأول على القبائل التركمان ودخول تبريز، أمر بأن تقرأ الخطبة باسم الأئمة الاثني عشر وأن يسك على العملة الرسمية عبارة: «لا اله الا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله»، ثم يتبعه اسم السلطان الصفوي، وكانوا أيضاً يستخدمون شعارات أخرى لسكها على النقود الرسمية، منها:

- اللهم صل على محمد المصطفى وعلي المرتضى.
- ناد علياً مظهر العجائب تجده عونا لك في النوائب.
- كل هم وغم سينجلي بولايتك يا علي يا علي.
- يا علي بن موسى الرضا.
- يا صاحب الزمان.
- وأيضاً كانت تستخدم أسماء الأئمة كلها على النقود الرسمية[6].

ومن مظاهر اهتمامهم كذلك، الحرص على الاحتفال بكل المناسبات الشيعية، مثل أعياد ميلاد جميع أئمة الشيعة، وكذلك إقامة العزاء في ذكرى وفاتهم أو استشهادهم، وكان الشاه عباس يقيم في كل عام مراسم العزاء في اليوم التاسع عشر حتى السابع والعشرين من شهر رمضان، بمناسبة استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كما كان يقيم مراسم العزاء في الأيام العشرة الأولى من محرم وفي ليلة عاشوراء[7].

---

(6) تاريخ فرهنك و تمدن إيران در دوره صفوية، ص168–170.

(7) زندكى شاه عباس اول، ج3، ص60.

وكان الشاه عباس الكبير، حريصاً كذلك على الإكثار من زيارة أضرحة مشايخ الشيعة وأئمتهم، والقيام بخدمتها، فكان يزور ضريح الإمام الرضا في مشهد، وقد زار هذا الضريح ذات مرة سيراً على الأقدام من أصفهان إلى مشهد (1333 كم)، وذلك وفاء لنذر غير معروف، وبدأ الرحلة يوم الخميس، الخامس عشر من جمادي الأول، عام 1010هـ، الموافق للثامن من نوفمبر (تشرين الثاني) 1601، ووصل إلى مشهد في الرابع عشر من جمادي الآخرة من العام نفسه، وقضى هناك ثلاثة أشهر يقوم بالخدمة، وعلق بعض مؤرخي الصفوية على هذه الرحلة بالقول: «يدرك علماء التاريخ أنه لا يوجد حاكم سلك مثل هذا الطريق الذي سلكه الشاه عباس، وإذا كان هرقل قد سار من القسطنطينية إلى بيت المقدس، فقد رشوا له أرض الطريق بالورود والرياحين، في حين سلك الشاه عباس الطريق على الحصى والرمال دون أن يُعبّد أو يُمهّد، وقد آثر أن يسير حافي القدمين»[8].

وبعد أن تمكن من فتح بغداد عام 1032هـ/1622م، واستولى على العتبات المقدسة لدى الشيعة، والموجودة في كل من كربلاء والنجف والكوفة، نجده يسارع بزيارتها، وقد ذكر البعض بأنه قضى عشرة أيام في ضريح علي بن أبي طالب في النجف، حيث قام بخدمة زواره وبكنس أرض المقبرة[9]، وإمعاناً في إعلان تبعيته لآل علي بن أبي طالب، وتمسكه بالمذهب الشيعي لقب نفسه بـ «كلب عتبة علي» أو «كلب عتبة الولاية»، ونقش هذا اللقب على خاتمه لكي يستعمله في المراسلات الرسمية[10].

---

(8) ملحقات تارخ روضة الصفاء، ج8، ص331.

(9) زندكى شاه عباس أول، ج3، ص19.

(10) دين و مذهب در عصر صفوي، ص: 57.

ولكن على الرغم من شدة تعصب الصفويين المذهبي، فقد حرص البعض من سلاطينهم، كالشاه عباس الكبير، على التقليل من نفوذ رجال الدين، وكف أيديهم عن التدخل في شؤون الدولة السياسية، في حين كان البعض الآخر من ملوكهم ولا سيما على عهد السلطان محمد خدابنده، قد فسح المجال أمامهم بالتدخل في شؤون الدولة السياسية، في كل صغيرة وكبير، وكان ذلك رد فعل على ما كان يجري في عهد سلفه الشاه إسماعيل الثاني بن طهماسب بن إسماعيل الأول الصفوي، إذ كان قد قصد الرجوع إلى المذهب السنِّي، لرفضه المغالاة التي اتسمت بها الدولة الصفوية، ولكنه تراجع عن فكرته بعد ما أقنعه مستشاروه بأن الرجوع إلى المذهب السني ثانية يعني دخول الدولة الصفوية في نفوذ الدولة العثمانية السنِّية، ورغم ذلك حافظ على سياسته المتسامحة تجاه المذاهب السنِّية، وفي النهاية اغتيل على يد بعض القزلباش المتشددين بعد ما دُس له بالسم، وقيل كان اغتياله عقوبة على تخليه عن دعم التشيع المتشدد، ونيته الرجوع إلى المذهب السنِّي[11].

ولم تكن سياسة التشدد الديني للحكام الصفويين قاصرة على أهل السنَّة فقط، بل شملت كل الأقليات الدينية المتواجدة في إيران، من المسيحين واليهود والمجوس والمذاهب الصوفية[12]، وهذا شأن كل حكم يقوم على أساس الدين، ويفرض مذهباً معيناً على الشعب، ويربط الديانة بالأمن والمصالح العامة، وهذا ما نخافه في العراق الجديد، بسبب وجود

(11) شاه اسماعيل دوم: شاه تباه شده، ص ص: 159 - 160.

(12) للمزيد من الاطلاع راجع: سياست و اقتصاد عصر صفوي، 268.

مرجعية دينية محددة تتبناها السلطة، وعليه كلما كان يتوسع نفوذ علماء الدين في السلطة، كان يكثر التشدد الديني تجاه الأقليات، كما نشاهده في عهد السلطان حسين الصفوي، الذي بدأ يطلب الجزية منهم، وخصوصاً من اليهود والمجوس، وكان يأخذ منهم أيضاً ضرائب أخرى، مما أثار تلك الأقليات، وعندما هاجم محمود الأفغان لإسقاط الدولة الصفوية، واجه إقبالاً واسعاً ومساندة كبيرة من الأقلية المجوسية في يزد والمناطق الأخرى[13].

وعلى الرغم من ذلك، لم يكن تعامل الصفويين مع الأديان والمذاهب المختلفة على مستوى واحد، وذلك لاختلاف المصالح والظروف، فكانوا عادة يتعاملون مع المسيحيين بشكل أفضل بسبب حاجتهم إلى مساعدة الدول الأروبية، وبسبب العداء المشترك للصفويين والدول المسيحية تجاه العثمانيين، فعدو العدو يعتبر صديقا، وسنستعرض في ما يلي تعامل الحكام الصفويين تجاه الفرق الصوفية، وأهل السنَّة، والمسيحيين، واليهود، خصوصاً بسبب أهمية هذه المذاهب والأديان في العهد الصفوي، ونغض النظر عن الأديان الأخرى كالمجوس والصابئة والهندوس والبوذيين والمذاهب الأخرى كالإسماعيليين الذين كان عدد منهم متواجد في إيران آنذاك.

---

(13) انقراض سلسلة صفوية، ص ص: 63 – 69.

أولاً: الصفويون والفرق الصوفية

بنت الأسرة الصفوية أمجادها على أكتاف أتباع المذاهب الصوفية -شيعية منها كانت أو سنِّية- ولكن سرعان ما ظهرت خلافات بين الحكام الصفوية والأتباع المنتمين إلى الفرق الصوفية، فكان من آثار ذلك الفتك بكثير منهم، حتى وإن كانوا من الشيعة[14]، فالملك عقيم ولا يرحم أتباع الديانة الواحدة، أو حتى أفراد الأسرة الواحدة، والملفت في الأمر هو أن ما جرى على الفرق الصوفية كثيراً ما كان يحدث بطلب ودعم من الفقهاء، الذين كانوا يعتبرون التصوف منافساً تاريخياً لهم، فيجب حذفهم، تمهيداً لبسط سيطرة الفقهاء على الأمور، وهكذا استمرت الأمور إلى أن بسط الفقهاء أيديهم على مقاليد الحكم كافة في النصف الثاني من العهد الصفوي.

قام الشاه عباس بحركة إبادة ضد المتصوفة، بسبب رأي فقهاء البلاط الصفوي بأنهم من الفرق المنحرفة والضالة، وخصوصاً بعدما عرف أنهم يدبرون بعض الدسائس ضده[15]، وأهم نموذج على ذلك ما حدث للنقطويين، حيث ينسب المذهب النقطوي إلى أحد سكان جيلان في شمال إيران، اسمه «محمود نامي»، وقد بدأ محمود بدعوته عام 800هـ/1397م، ودعوته الأساسية هي أن كل شيء يحدث من نقطة من

---

(14) انظر: تاريخ سياسي و اجتماعي إيران، ص336.

(15) للمزيد من الاطلاع راجع: دين و سياست در دوره صفوي، ص ص221-266.

التراب، ولهذا اشتهر مذهبه بالنقطوية[16]، وقد تعرضت النقطوية للتنكيل من قبل الشاه طهماسب الأول (930-984هـ/1523-1576)، إلا أن اضطراب الأمور خلال سني حكم الشاه إسماعيل الثاني والسلطان محمد خدابنده، ساعد النقطويين على انتشار دعوتهم[17].

ولكن ما أن استقر الشاه عباس على العرش، واطلع على الانتشار المتصاعد للنقطوية، خاف من ظهور قوة شعبية منافسة للصفوية، فأسرع على الفور إلى مقرّهم في قزوين بحجة زيارة المرشد الصوفي، ثم أمر بإلقاء القبض على رؤسائهم والفتك بهم وبكل من ينتمي إليهم علنا[18]، كما اضطر أتباع بعض الفرق الصوفية السنِّية كالقادرية -وهم اتباع عبدالقادر الجيلاني- إلى المغادرة من إيران بسبب التشدد المذهبي ضدهم[19].

ثانياً: الصفويون وأهل السنَّة

كان الصفويون يؤكدون كثيرا على لعن الخلفاء علناً، بل وجميع من يعتقدون أنهم أعداء الإمام علي بن أبي طالب في ابتداء أمرهم، وكان أتباع الصفوية المتشددون يعرفون بجماعة «التبرائيون»، والمقصود منه أنهم يؤكدون على البراءة من أعداء أهل البيت[20]، فكان هؤلاء يمشون

(16) راجع: زندكاني شاه عباس أول، ص ص40–60.

(17) دين و مذهب در عصر صفوي، ص99.

(18) زندكاني شاه عباس أول، ص ص273–277.

(19) تاريخ فرهنك و تمدن إيران، ص153.

(20) زندكاني شاه عباس أول، ج 3، ص899.

في الأسواق والأزقة، ويلعنون ويسبون الخلفاء الراشدين الثلاثة (أبو بكر وعمر وعثمان)، بل وجميع أعداء الإمام علي، وحتى أحيانا كانوا يتوسعون في أمرهم، ويسبون أهل السنَّة جمعياً، وكان يجب على من يسمع اللعن أن يجيب بصوت عال: «اللهم أكثر ولا تُقِل»[21]، وإذا لم يجب السامع بالعبارة المذكورة، كان من المحتمل أن يُقتل على أيدي الجماعة المذكورة[22]، وعندما احتل السلطان إسماعيل العراق ودخل بغداد سنة 914هـ/1508م، أمر بنبش قبر الإمام أبي حنيفة -الذي كان مزاراً لسنة العراق- وبنى مكانه مرفقاً خاصاً للشيعة، وكان يعطي 25 ديناراً لمن يدخله من الشيعة[23].

كانت الخلافة العثمانية تعتبر نفسها حامية للمذهب السنِّي في العالم الإسلامي، حين ظهرت الدولة الصفوية، وقد أدى هذا العداء المذهبي بين العثمانيين والصفويين إلى حدوث نزاع مسلح متواصل بينهما، وقد كان لهذه المعارك المستمرة أثر بالغ في زيادة الخصام المذهبي بينهما، وفي زيادة تعصب سلاطين الصفوية للمذهب الشيعي وعدائهم للمذهب السني[24]، ومن جهة أخرى، فإن تعامل الصفويين العدائي مع العثمانيين، وسياستهم الدينية غير المتسامحة والعدوانية، قد أثر كثيراً على تشديد النزاعات الدينية، فكان الشاه إسماعيل يرسل رجالاً من أتباعه إلى المناطق الشيعية الخاضعة للسلطة العثمانية في آسيا الصغرى، لإبلاغ مساندته لهم، ودعوتهم للمجيئ إلى الأراضي الصفوية، وكان كثيراً ما

---

(21) هذه العبارة ترجمة ضمنية لما كان يقال بالفارسية: «بيش باد و كم مباد».

(22) تاريخ فرهنك و تمدن إيران در دوره صفوية ص ص168–170.

(23) زندكاني شاه عباس اول، ج 3، ص890.

(24) تاريخ روابط خارجي إيران، ص16–17.

سببت تلك الدعوات فتناً وحروباً في تلك المناطق، بل وكانت تثير السلطان العثماني للقيام بحركة مماثلة، فكان يرسل الدعم للأكراد السنَّة في آذربايجان لإثارتهم ضد الحكومة الصفوية أيضاً[25].

وقد وصل العداء لدرجة أن الشاه عباس حاول إقناع الإيرانيين بالتخلي عن الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج، والاكتفاء بزيارة قبر الإمام الثامن علي بن موسى الرضا في مشهد، وذلك لأن الواجب القومي يحتم عدم سفر الإيرانيين إلى مكة عبر أراضي الدولة العثمانية، حتى لا يدفعوا رسم عبور لهذه الدولة المعادية. ولكي يرغبهم الشاه عباس في التوجه إلى مشهد، كان يكثر من التردد عليها وزيارة قبر الإمام الثامن بها.

ومن مظاهر تعامل الصفويين مع أهل السنَّة، ما فعله الشاه عباس أيضاً، مع سكان قلعة «أندخود» بما وراء النهر، وكان الشاه عباس قد فتح هذه القلعة عام 1011هـ/1602م، وأمن أهلها من السنَّة على حياتهم وممتلكاتهم، وطمأنهم بأنه لن يتعرض لهم بسوء بسبب اعتناقهم المذهب السنِّي، ولكن حدث في عام 1012هـ/1603م، وهو عائد من محاصرة مدينة بلخ، أن مر بقلعة أندخود هذه، وفجأة وبلا سبب واضح أمر جنوده بالإغارة عليها وأسر جميع أكابرها وأعيانها وعظمائها، وأن يسوق كل جندي صفوي أمامه أسيراً من أهل هذه القلعة حتى يصلوا إلى منطقة أصفهان.

وبسبب الحروب الكثيرة التي خاضها الصفويون مع العثمانيين، فقد كانوا غالباً قساة القلب مع الأسرى العثمانيين -وهم كانوا غالباً من

---

(25) زندكاني شاه عباس أول، ج 3، ص890-897.

أهل السنَّة- وكان أقل عقاب يوقع عليهم إن لم يقتلوا، هو سمل عيونهم، ولم يكن يُصفح عن أي أسير منهم إلا إذا أعلن تخليه عن المذهب السنِّي ودخوله في المذهب الشيعي، ومن الذين فعلوا ذلك شريف باشا حاكم قلعة وان بمنقة آذربايجان، فقد أعلن -بعد أسره- تخليه عن خدمة السلطان العثماني، ودخوله في المذهب الشيعي، والبقاء في إيران، فصفح الشاه عنه، وأجرى عليه راتباً شهرياً من خزانته الخاصة[26]، وقد ذكر جلال الدين محمد اليزدي، المنجم الخاص للشاه عباس في كتابه (تاريخ عباسي)، العديد من هكذا مشاهد من معاملته مع أهل السنَّة، مما يتضح من خلالها قساوة المعاملة معهم[27].

ونجد نموذجا آخر من هذا التعامل من خلال سلوكهم مع القبائل الكردية، التي تقطن مناطق شمال غرب آذربايجان ومنطقة كردستان، إذ هم يجاورون الحدود العثمانية، ويتبعون مذهبها السنِّي، مما أوجد نوعاً من التعاطف بينهم وبين العثمانيين، وقد كانوا يعلنون تبعيتهم للدولة الصفوية، مثلما حدث في أيام حكم الشاه إسماعيل الأول والشاه طهماسب، ولكن عندما اجتاحت الاضطرابات الدولة الصفوية في أيام حكم الشاه إسماعيل الثاني والسلطان محمد خدابنده، واستطاعت الدولة العثمانية احتلال أجزاء كبيرة من آذربيجان، أعلن هؤلاء الأكراد تعاطفهم مع العثمانيين رفقاء المذهب السنِّي، ولكن عندما تولى الشاه عباس الحكم واستطاع طرد العثمانيين من مناطق آذربايجان، صمم على الانتقام من هؤلاء الأكراد السنّة وتشريدهم متى سنحت الفرصة لذلك.

---

(26) زندكى شاه عباس أول، ج3، ص38.

(27) زندكاني شاه عباس اول، ص ص37–38.

وفي عام 1013هـ/1604م، حدثت فتنة كردية ضد الحكام الصفويين مما أدى إلى استيلاء الأكراد على بعض القلاع الحصينة في منطقتهم، فأمر الشاه عباس جنوده بالتحرك صوب المنطقة الثائرة، والاستيلاء على القلاع الحصينة بها، والبطش بضراوة وقسوة بهؤلاء الأكراد، وأشاع فيهم القتل والتشريد حتى أصبح الرجال طعمة للسيوف، وقد حاول الأكراد استعطاف الشاه عباس بعد أن أمنهم على حياتهم، وتقدم زعيمهم «قباد خان» ومعه مائة وخمسون فارساً إلى الشاه عباس، وذلك لإظهار خضوعهم وتقديم فروض الطاعة للشاه، ولكن ما إن وصلوا إلى بلاطه حتى فتك بهم جميعاً[28]، ولم يكتف الشاه عباس بالتنكيل بالأكراد في ديارهم، وإنما أقدم على اتخاذ خطوة أشد قسوة، وهي تهجير عدد كبير منهم بالقوة إلى مناطق أخرى، فقد أمر بنقل خمسة عشر ألف أسرة كردية، ومعهم كل أمتعتهم ووسائل معيشتهم وقطعان ماشيتهم من كردستان إلى شرق خراسان، ليكونوا فاصلاً بشرياً بين الإيرانيين والأوزبك، ولعله أراد بهذا الإجراء أن يجعل من هؤلاء الأكراد السنّة أول من يتلقون ضربات الأوزبك السنّة[29]، وقد يكون البعض من حكامنا في زماننا هذا، قد جعل هؤلاء الحكام والسلاطين قدوتهم في التعامل مع مخالفيهم، من خلال التنكيل بهم وتهجيرهم.

وعلى الرغم من هذا العداء السافر للمذهب السنِّي وأتباعه، فإن سلاطين الصفوية كانوا يتظاهرون أحيانا بالعطف على السنّة وإكرام

---

(28) خلاصة تاريخ الكرد و كردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، ص207-208.

(29) الشاه عباس الكبير، ص ص101–104.

وفادة بعضهم، فكانوا عادة يحسنون استقبال التجار السنّة الوافدين من بلاد إسلامية أخرى، ولعلهم كانوا يفعلون ذلك لحرصهم على ازدهار تجارة إيران، وبالتالي يتنازلون عن عدائهم المذهبي، مقابل ما يحصلون عليه من أرباح اقتصادية[30].

ثالثاً: الصفويون والمسيحيون

كانت معاملة الصفويين للرعايا الإيرانيين الذين يعتنقون الديانة المسيحية، وكذلك لرعايا الدول المسيحية الذين يفدون إلى إيران بغرض السياحة، أوحتى التبشير بالدين المسيحي في إيران، كانت معاملتهم مع هؤلاء على النقيض من معاملتهم لأهل السنّة كما بيّنا، ولا شك أن تعاملهم معهم بالود والعطف، كان من أجل خطب ود الدول المسيحية الأوروبية في مواجهتهم مع العثمانيين، وأيضاً من أجل تنشيط التجارة والاقتصاد الإيراني[31]، فقد قام الشاه عباس بتهجير الأرمن لغرض حمايتهم من هجمات العثمانيين، وبنى لهم مدناً وضواحي بجوار العاصمة أصفهان، ومنها ضاحية «جلفا»، وهو اسم عاصمتهم في أذربايجان، وبنى لهم فيها كنيسة كبيرة، ومازالت هذه الضاحية قائمة إلى يومنا هذا في مدينة أصفهان، كما أمر بقصر الإقامة في هذه الضاحية على المسيحيين دون سواهم، وحرم على المسلمين اتخاذ الدور فيها، حتى لاتثار أية مشاكل

(30) دائرة المعارف البستاني، طبعة مصر، ج 11، ص486.

(31) تاريخ صفوية، ج 2، ص ص359–360.

مذهبية، وقد أصبحت جلفا الجديدة مركزاً مسيحياً نشطاً في إيران، حيث لعبت دوراً هاما في الحفاظ على الديانة المسيحية، وعملت على نشرها، والتبشير بتعاليمها[32].

وكان سلاطين الصفوية يبذلون قصارى جهودهم لتشجيع الأوروبيين على زيارة إيران، والتعامل معها من الناحيتين السياسية والتجارية الاقتصادية، فقد أصدر الشاه عباس أوامره في عام 1007هـ/1598م بعدم التعرض لهم، والسماح لهم بحرية التجوال في أراضي الدولة الصفوية كلها، وهذا نص الأمر الملكي:

«... من اليوم يسمح لمواطني الدول المسيحية ومن يدينون بدينهم بالحضور إلى أية بقعة من وطننا، ولا يسمح لأي شخص بأي حال من الأحوال إهانتهم، ونظرا لما بيننا وبين الملوك المسيحيين من علاقات ود ومحبة، فيسمح للتجار المسيحيين بالتجول في جميع أجزاء إيران، ومزاولة نشاطهم التجاري في أي بقعة من الوطن، دون أن يتعرض لهم بالإيذاء أي شخص مهما بلغت مكانته، سواء أكان حاكما أو أميرا أو خانا أو موظفا، كما تعفى جميع أموال تجارتهم التي يحضرونها معهم من الضرائب. وليس لأي شخص مهما بلغت مكانته أن يزاحمهم أو يكلفهم المشاق. وليس من حق رجال الدين مهما كانت وظائفهم، التجرؤ على الإضرار بهم، أوالتحدث معهم بخصوص العقائد المذهبية ...»[33].

---

(32) تاريخ صفوية، ج 2، ص ص774–775.

(33) الشاه عباس الكبير، ص: 106.

ولم يكتف الشاه عباس بإصدار هذا الأمر، بل كان حريصاً على التعاطف مع المسيحيين في كل مناسبة، والاشتراك معهم في احتفالاتهم الدينية، ففي عام 1018هـ/1609م، أرسل إلى بلاد الكرج في إحضار عدد من الخنازير ليقدمها هدية لمسيحيي جلفا في عيدهم، ثم ذهب بعد ذلك لتهنئتهم بالعيد، وشاركهم احتساء الخمر، وأمر جميع مرافقيه من رجال البلاط الصفوي باحتساء الخمر مشاركة للمسيحيين في هذه المناسبة، على الرغم من توافق ذلك العيد المسيحي مع اليوم الخامس عشر من شهر رمضان، فاضطرت الحاشية إلى شرب الخمر والإفطار على محرم![34].

ومن مظاهر تعاطفه مع المسيحيين، حرصه على زيارة الكنائس ولقاء القساوسة، والتباحث معهم في أمور دينهم، ومشاهدة مراسمهم الدينية، وسماع مواعظهم وترانيمهم، حتى أصبح على دراية كبيرة بتعاليم الدين المسيحي، مما شجع بعض القساوسة على دعوة الشاه عباس للدخول في الدين المسيحي، ولكنه اعتذر برفق ودون ثورة، وقال: «لنترك هذا الكلام إلى وقت آخر»، وقد أدى هذا التعاطف إلى اتهام البعض للشاه عباس بأنه كان ضعيف الإيمان بالدين الإسلامي وبالمذهب الشيعي، ولكن يدافع الإيرانيون عنه قائلين بأن الشاه عباس كان يلجأ إلى التعاطف مع المسيحيين كضرورة سياسية، لا عن عقيدة مذهبية، إذ كان حريصا على كسب ود الدول المسيحية لتسانده في حروبه ضد الدولة العثمانية[35].

---

(34) زندكي شاه عباس أول، ج3، ص: 264 .

(35) زندكاني شاه عباس أول، ج3، ص:72.

وعلى هذا يمكن القول بأن سلاطين الصفوية بشكل عام والشاه عباس الكبير الذي له الأثر الأكبر في تقوية دعائم الدولة الصفوية، كانوا يظهرون تعاطفهم مع المسيحيين، بل نجدهم في كثير من الأحيان يفسحون المجال لهم ببناء الكنائس، والتبشير بدينهم بين المسلمين، ولهذا نجد عدداً كبيراً من علماء الشيعة الذين كتبوا رسائل ضد النصارى، وفي إثبات بطلان مذهبهم وديانتهم في تلك الحقبة[36]، نعم كانت هناك أحيانا أوقات عصيبة مرّت على المسيحيين في زمن بعض سلاطين الصفوية، وكانت على الأغلب بسبب قضايا سياسية، مثل قيامهم بالثورة أو الفتنة، كما حصل في زمن الشاه عباس نفسه، عندما نكّل بمسيحيي كرج -وهي مدينة بقرب طهران- وحوّل كنائسهم إلى مساجد[37]، كما أنه كان أحيانا يقرض التجار المسيحيين أموالاً، ويشترط على من يتعذر في السداد أن يعفيه مقابل اعتناقه الإسلام[38].

رابعاً: الصفويون واليهود

كانت صورة اليهود في العالم كله، وخصوصاً في أوروبا خلال عصر الدولة الصفوية، صورة بغيضة، إذ كان ملوك أوروبا وقساوستها يحرمونهم من ممارسة الزراعة، وضيقوا عليهم الخناق في مجال التجارة، فلم يعد لهم من مجال للكسب إلا في تجارة الذهب والمجوهرات، والقيام بإقراض المعوزين بالربا الفاحش، وذلك من شأنه أن يخلق أحقاداً وعداوات، وأن

---

(36) للمزيد من الاطلاع راجع: دين و سياست در دوره صفوي، ص ص301-378.

(37) زندكانى شاه عباس أول، ج 3، ص88.

(38) تاريخ روابط إيران و اروبا در دوره صفوية، القسم الاول، ص43.

يعطي عن اليهود صورة قبيحة شوهاء، ونتيجة لهذا أصبح اليهود معزولين عن الجميع، ويقطنون أماكن وحارات خاصة بهم عرفت باسم «غيتو» (أي حارة اليهود)، وبالتدريج أصبح نظام الغيتو يُفرض إجباريا على اليهود، حيث لا يسمح لهم بالإقامة في غير حاراتهم، أوالتجول ليلا في غير أحيائهم[39].

ولم يكن حال اليهود في إيران أفضل مما كان عليه في أوروبا، وكان الحكام الصفويون ينظرون إلى اليهود نظرة دونية وسيئة، ويعاملونهم معاملة قاسية أحيانا كثيرة، وكان اليهود يقيمون في أماكن خاصة بهم (غيتوات)، سواء في أصفهان أو في سائر المدن الإيرانية، وكانوا هدفاً لحقد الناس واحتقارهم وملامتهم، بل وإيذائهم أحياناً، وعندما رغب الشاه عباس في تحويل يهود أصفهان إلى الدين الإسلامي، أمر بأن يصرف لكل يهودي يعتنق الإسلام أربعة تومانات، فأخذ جمع كبير من اليهود النقود، وتظاهروا بقبول الإسلام، ولكن عندما أدرك الشاه بعد فترة وجيزة أن دخولهم الإسلام كان خشية منه، لا عن إيمان قلبي، تركهم أحراراً في دينهم[40]، وكان عدد اليهود في زمن الدولة الصفوية قليلاً، ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا -خلافاً لسائر الأقليات الأخرى- دائمي الانقسام فيما بينهم، فقد ورد في إحدى المذكرات الأوروبية: «في الواحد والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) 1619م، وقع في أصفهان خلاف بين اليهود، وتشاكوا إلى الشاه عباس الكبير، وأخذ كل منهم يتهم الآخر، ووسط ذلك اتهم بعضهم ثلاثة أو أربعة من زعائمهم الدينيين بالسحر

(39) الصهيونية العالمية وإسرائيل، ص ص58–59.

(40) زندكي شاه عباس أول، ج30، ص97.

وارتكاب جنايات كبرى، وبعد أن جرت المحاكمة صدرت الأوامر بقتلهم، وذلك بتركهم للكلاب المتوحشة التي أعدت خصيصاً لقتل المذنبين والمحكوم عليهم بالإعدام، فاختار ثلاثة منهم الدين الإسلامي، ورفضه واحد اسمه «عبا»، فنفذ فيه حكم الإعدام، حيث هجمت عليه الكلاب المتوحشة، وقطعت جسده إرباً إرباً».

وهكذا كان مسلك السلاطين الصفويين مع اليهود شبيهاً بمسلك حكام أوروبا معهم، فهم مع قلتهم، إلا أنهم كانوا منبوذين من قبل السلاطين وعامة الشعب الإيراني، الذي يشكل الإسلام دين الغالبية العظمى منهم، وموقف الإسلام المتشدد في اليهود واضح للجميع، لأنهم أشد عداوة للذين آمنوا كما جاء في آيات القرآن الكريم، ولذا فإنه لا يمكن التعامل معهم بغير هذه القساوة من قبل السلاطين إرضاءً لعامة المسلمين.

الثورات الدينية في العهد الصفوي

ظهرت في تلك الفترة عدة دعوات وثورات دينية بسبب البيئة المتحمسة دينيا، ولم تنحصر هذه الثورات في غير الشيعة، بل شملت فرقاً شيعية أيضاً، وكان الحكام الصفويون متشددون جداً تجاه تلك الدعوات، ويتعاملون معها بعنف وقساوة، خصوصاً إذا كانت تلك الدعوات تتطلع نحوالسلطة السياسية.

ومن نماذج هذه المحاولات، ظهور رجل يدعى سيد محمد في جيلان، ادعى أنه نائب الإمام المنتظر، وبعد أن نجح في استقطاب عدد

كبير من المريدين، ادعى أنه هو المهدي المنتظر، فالتف حوله معظم أهالي جيلان، فخشي الشاه عباس من تزايد قدرته، وصمم على البطش به حيلة، حيث أظهر استعداده للانضمام بأتباعه أولا، ثم طلب منه أن يأتي إليه لكي يتعرف على أفكاره وتعاليمه، ومن ثم يؤمن به، وبعد مثوله أمام السلطان، أمر الأخير بإلقاء القبض عليه وعلى أعوانه، وتم قتلهم جميعا عقابا على دعوتهم الباطلة[41].

وظهر نموذج آخر من هذا القبيل في الإمارة المشعشعية في خوزستان، فكانت تلك الإمارة تحكمها أسرة شيعية غالية، وحاول أحد حكامها، ويدعي سلطان فياض المشعشعي، التمرد على الصفوية، فذهب السلطان إسماعيل الأول في سنة 1510م/914هـ إليه، وغلبه على أمره وقتله، واستتب الأمر للصفويين في تلك الإمارة[42].

حدثت أيضاً ثورات دينية أخرى، ومن أهمها ثورة الأيزيديين (ديانة قديمة تتركز حالياً شمال العراق) ضد السلطان الصفوي، بقيادة رجل يدعي «شير صارم» في ابتداء أمر الصفوية، فذهب إليه السلطان إسماعيل في منطقة «سورلوك»، وقتل عدداً من المتمردين، وغلبوا على أمرهم، واستتب الأمر لصالح السلطان الصفوي[43]، وكانت حركة النقطويين أيضاً نموذجاً آخر من هذه الدعوات والثورات التي هزمت أخيراً، وقد تحدثنا عنها في قسم التعامل مع الفرق الصوفية.

---

(41) زندكاني شاه عباس، ج 3، ص ص917–918.

(42) دين و دولت در عصر صفوي، صص: 87 - 89.

(43) دين و دولت در عصر صفوي، صص: 84 – 87.

المشهد الصوفي والفلسفي في العهد الصفوي

د. حيدر عبد المناف البياتي(*)

يشكل الازدهار الفلسفي والصوفي، أحد المعالم الرئيسية للعهد الصفوي (1501-1735)، حيث شهدت أصفهان حاضرة الصفويين وعاصمتهم، نهضة علمية عملاقة ونشاطاً ثقافياً غير معهود. ولم يقتصر هذا النشاط على مدينة أصفهان -وإن كان هوالأشد فيها- بل تجاوزها ليشمل مدناً إيرانية أخرى كشيراز وقزوين وتبريز وكاشان، وظهر في هذا العهد عدد كبير من الفلاسفة والعرفاء والفقهاء والمحدثين، بجانب عدد من المذاهب الصوفية وخانقاهاتهم[1]، وسنحاول في هذه الدراسة، استعراض المشهد الفلسفي والصوفي في العصر الصفوي بالتحديد.

(*)باحث وكاتب عراقي، أستاذ في المدارس الدينية الشيعية.

(1) الخانقاه مكان الخلوة والتعبد للمتصوفة، يقومون فيه بأداء أعمالهم الدينية من الرقص والسماع وغير ذلك.

تعتبر إيران أحد الملاذات الأساسية لظهور المدارس الصوفية وانتشارها في البلاد الإسلامية الأخرى، فالخلفية الدينية الإيرانية ما قبل الإسلام، والمحاولة للخروج من مضيق النصوص الدينية، قد تفسر لنا سبب الإقبال البالغ على هذه المدارس في إيران، وقد أثّرت الاضطرابات السياسية والاجتياحات العسكرية من قبل الأمم المجاورة لإيران في انتشار المدّ الصوفي في هذا البلد، خصوصاً بعد اجتياح المغول في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، فكان الإيرانيون يجدون في هذه المذاهب ما يسكن آلامهم، ويهدئ روعهم، ويعيد إليهم الأمل بعد كل ما شاهدوه من محن وصور مروعة، فأخذت الخانقاوات الصوفية تنتشر في كل مكان، وامتلأت حلقاتها ومجالسها بالأتباع والمؤيدين[2].

الطرق الصوفية

كانت السلسلة الصفوية تمتلك أحد أهمّ المراكز الصوفية في شمال غرب إيران، وكانت تستقطب أتباعاً كثيرين من أقصى البلاد المجاورة، بما فيها المناطق التي كانت تخضع للسلطة العثمانية، ولكن سرعان ما تحولت الطريقة الصفوية من طريقة لتهذيب النفوس، إلى كيان سياسي يهدف إلى الحصول على السلطة والحفاظ عليها، فقد استطاع الصفويون بناء دولتهم الفتية بالاستعانة بقوة أتباع الخانقاه الصفوي المدعوين بالقزلباش[3]، واستغل الصفويون الهالة القدسية التي أحاطت

---

(2) عبد الصمدي، محمود، سيرى در تصوف وعرفان إيران، ص57-56.

(3) قزلباش كلمة تركية مركبة من كلمتين ومعناها «أصحاب الرؤوس الحمراء»، لانهم كانوا يعتمرون عمائم حمراء تحتوي على اثنتي عشرة طية، إشارة إلى الأئمة الاثني عشر.

بأجدادهم، سادة الخانقاه الصفوي، للوصول إلى سدة الحكم، كما أنّ تحوّل العائلة الصفوية من المذهب السنّي إلى التشيع قبيل قيام دولتها كان لأسباب سياسية، تهدف إلى الحصول على تأييد ودعم أتباع هذا المذهب، الذي كان يواجه إقبالاً شاسعا منذ فترة طويلة في مختلف مناطق إيران.

استلم القزلباش، بعد قيام الدولة الصفوية، أعلى المناصب في الدولة الجديدة، فصار التيار الحاكم تياراً صوفياً مشبعاً بفكر شيعي مغالٍ، فقد كان القزلباش ينظرون إلى الشاه الصفوي وخاصة الشاه إسماعيل بنظرة الألوهية ويعدونه «ظهوراً إلهياً» وبمنزلة صاحب مقام الولاية والوحي إلى غير ذلك من عقائد الحلول والاتحاد والتناسخ(4)، ولقبّوه بـ«المرشد الكامل»، و«الصوفي الأعظم» باعتباره شيخ الطريقة الصفوية؛ كما كانوا يتفانون في حب المرشد حتى برزت عندهم ظاهرة السجود له، أوتقبيل الأرض بين يديه(5)، مما أثار عليهم حفيظة الفقهاء الشيعة.

ولم يقتصر الوجود الصوفي في هذا العهد على أتباع الطريقة الصفوية، بل كانت هناك طرق أخرى لها حضور فاعل في المجتمع الإيراني، وقد تراوح أسلوب تعامل السلطة مع هذه الطرق بين الدعم أو الإبعاد والمطاردة التي وصلت إلى حدّ الإبادة، ومن أشهر هذه الطرق الصوفية في ذلك العصر:

---

(4) زرين كوب، عبدالحسين، دنباله جستجودر تصوف إيران، ص227، وأيضا راجع: سيوري، راجر، إيران عصر صفويه، ص21-20.

5) تميم داري، أحمد، عرفان وادب در عصر صفوي، ج1 ص62.

الطريقة «النعمة اللهية»: وهم أتباع شيخ نعمة الله الولي (ت 1431م)، حيث ارتبط شيوخ هذه الطريقة بسلك الدولة، وصارت لهم مكانة مرموقة في البلاط الصفوي، ووصل المير عبد الباقي اليزدي شيخ الطريقة النعمة اللهية يومئذ إلى منصب الصدارة في عهد الشاه إسماعيل لكنه قتل في معركة جالديران، وبعده حصل ولده شاه نعمة الله الثاني على حكومة مدينة يزد، كما كانت تربطه بالأسرة الصفوية علاقة مصاهرة، وبذلك سعت هذه الطريقة إلى التقرب من الدولة، حتى غدت من فروع الطريقة الصفوية، وقد فقدت الطريقة النعمة اللهية طابعها الروحي والمعنوي بسبب اتجاه شيوخها نحوالسلطة، وقد آل بها ذلك إلى نقمة كبيرة، حيث تمّت تصفية عدة أشخاص منهم، عندما قام الشاه صفي الدين بالتنكيل بأمراء الدولة الصفوية، وقتل العديد منهم بسبب سوء ظنه بهم[6].

الطريقة «النوربخشية»: وهم أتباع محمد بن عبد الله، الملقب بنور بخش (ت 1465م)، وهي الأخرى استطاعت كسب ودّ الأسرة الحاكمة، وتمكنت من الانتشار الواسع في شيراز بجهود شمس الدين اللاهيجي، كما تمكن القاضي أسد الله القهبائي من بث دعوة هذه الطريقة في كاشان وذلك في أوج قوة الصفويين، وأيضاً حصلت الأسرة النوربخشية على نفوذ كبير في مدينة الريّ، بسبب اهتمام الشاه إسماعيل بهم وإكرامه لهم[7].

---

(6) المصدر السابق، ص67-65.

(7) المصدر السابق، ص71-69.

الطريقة الذهبية: وهم أتباع «مير شمس الدين عبد الله برزش آبادي»، وقد تم إحياؤها إلى حد ما، حيث كان لقطب الدين الشيرازي أيام الشاه حسين -آخر الملوك الصفويين- أتباع ومريدون في شيراز[8].

وإلى ذلك كانت هناك طرق صوفية أخرى لم يكتب لها النجاح والبقاء في العهد الصفوي، فقد قام الشاه طهماسب بتتبع أتباع الطريقة النقطوية -التي كانت تحمل شيئا من الأفكار الغالية- والتضييق عليهم، لكنه لم يفلح في القضاء عليهم[9]، حتى جاء الشاه عباس الأول، فقام بقتل «يوسف تركش دوز»، أحد أقطاب الطريقة، ثم أطلق أوامره بقتل كل أتباع الطريقة النقطوية، فتمت إبادتهم في قزوين وأصفهان وساوة وكاشان وشيراز[10].

النزعة الصوفية عند الفقهاء

كانت النزعة الصوفية منتشرة أيضا في وسط مجموعة من الفقهاء الشيعة ومنهم:

البهائي العاملي: (ت 1622م)[11]، كان يمتلك حساً صوفياً وعرفانياً مرهفاً، فقد جاء في كتابه «الكشكول» مطالب كثيرة حول التصوف

---

(8) زرين كوب، عبد الحسين، ارزش ميراث صوفيه، ص98.

(9) تميم داري، أحمد، عرفان وادب در عصر صفوي، ج1 ص74.

(10) عبد الصمدي، محمود، سيرى در تصوف وعرفان ايران، ص82-81.

(11) كان البهائي الفقيه الشيعي ذو الاصول العربية من العلماء الشيعة المهاجرين من جبل عامل الى إيران وكان عالما في مجالات متنوعة من العلوم الإسلامية وغيرها، من أهمّها المعمارية، وله فضل كبير في تجديد بناء مدينة أصفهان وتعمير مساجد وقصور وحدائق فيها.

والعرفان، بحيث استطاع أن يكتسب احترام جميع الطرق الصوفية ويثير اهتمامها، حتى نسبته الكثير من الفرق والطرق إليها، كالطريقة النوربخشية، حيث اتهم بالانتماء إليها[12].

محمد تقي المجلسي: (ت 1659م)، تتلمذ على يد الشيخ البهائي، وكانت لديه ميول نحو الزهد والتقشف، ونقل أنه كان يمارس بعض طقوس الصوفية كالأربعينيات، حتى عدّه بعض الصوفية منهم، كما كان لديه إيمان بالكشف والشهود والكرامات، التي يمكن عدها من أهمّ خصائص الفكر الصوفي والعرفاني.

محمد باقر المجلسي: (ت 1699م) وهو ابن المجلسي الآنف الذكر، وكان من ألدّ أعداء الصوفية، فأنكر بشدة انتماء أبيه إلى التصوف، وأرجع وجود مظاهر التصوف عند والده إلى تمسكه بروايات أهل البيت، رضي الله عنهم، الحاثة على الزهد والورع وجهاد النفس، وقد برّر المجلسي اختلاط والده بالصوفية وتقربه منهم بأنه كان يحاول في البدء هدايتهم إلى طريق الصواب، فلما وجد أن جماعة منهم غير قابلين للهداية تبرأ منهم، بل وحتى كفّرهم، وفي الحقيقة كان الكثير من الناس لا يثقون بالمجلسي الأول، بسبب قوة التيار المناهض للتصوف، إلى أن جاء ولده المجلسي الثاني، وبرّأ والده من تهمة التصوف، فعادت ثقة الناس به، وتم الاعتماد على كتبه وتداولها[13].

---

(12) تميم داري، احمد، عرفان وادب در عصر صفوي، ج2 ص679.

(13) جعفريان، رسول، صفويه در عرصه دين وفرهنك وسياست، ج2 ص531-529.

الملا محسن الفيض الكاشاني: (ت1678م)، من العلماء الأكثر جدلاً في العهد الصفوي، الذي تارة يظهر بمظهر الإخباري المتعبد وأخرى يبدو كصوفي زاهد، وثالثة يبرز كفاءته كفيلسوف متعمق، وفي الحقيقة فإن الفيض قد تأثر بكل هذه المدارس الفكرية، وحاول أن يوفق بينها، فهو لم يكن يستطيع أن يتجاهل التراث الفلسفي والعرفاني الذي ورثه من أستاذه ووالد زوجته الملا صدرا (ت 1640م)، كما لم يستطع أن يتنكر للروايات والأحاديث، خاصة وهو تلميذ ماجد بن هاشم البحراني، الذي كان يحمل فكرا إخباريا. كل هذا جعله يحاول التوفيق بين هذه المدارس، مما أثار عليه البعض، حيث اعتبروا محاولته تلك جمعا بين اللامتجانسات. وقد كثر النقد لشخصية الفيض الكاشاني، لا لميوله الإخبارية التي تجلت في كتابه «الوافي»، حيث صار مداراً للبحث والدرس إلى فترة من الزمن، بل لميوله الصوفية، واعتماده على بعض آراء ابن عربي والغزالي، حيث قام الكاشاني بتهذيب كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، وأعطاه صبغة شيعية، وسماه «المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء». وكان من أشد العلماء الذين شنوا هجوما عنيفا على الفيض، هو علي بن محمد الشهيدي (ت 1691م) حفيد الشهيد الثاني[14]، ولكن رغم كل ذلك يبدو أن فكر الفيض قد شهد تطورا، فقد ظهرت ميوله الصوفية والباطنية في العقود الأولى من عمره، لكنه بعد ذلك صارت له ميول مخالفة للتصوف، حتى أنه ندم على كتابة الكثير من كتبه ذات الطابع الصوفي، بيد أنه لم يتنازل عن كل مبانيه القديمة، بل بقيت تلك الخلفية الفكرية تلقي بظلالها على فكره المتأخر.

---

(14) المهاجر، جعفر، الهجرة العاملية إلى إيران في العهد الصفوي، ص210.

ومن الجدير بالذكر أن المجلسي الثاني -ذا الفكر المناهض للتصوف- قد عد الفيض من شيوخ إجازته، ووصفه «المولى الجليل العالم العارف الرباني مولانا محمد محسن القاشاني»(15).

معارضة التصوف

لنرجع إلى الحديث عن التصوف بصورة عامة، فقد كان العصر الصفوي في بواكيره الأولى عصراً مفعماً بالروح الصوفية، التي اعتمد الصفويون عليها عندما شيدوا صرح دولتهم، فسيطر الصوفيون القزلباش على جميع مراكز القوة في البلاد، باعتبارهم أصحاب الفضل على هذه الدولة ومن قامت الدولة على أكتافهم، وبهذا أخذوا يحاولون وبشتى الطرق الحصول على أكبر قدر ممكن من الأموال والمكانة السياسية والاجتماعية، حتى أدى ذلك إلى نشوب صراعات داخلية فيما بينهم، ويبدو أن التسلط قد استهواهم، فاستفحل أمرهم حتى وصل بهم إلى التمرد على السلطان الصفوي، الملقب عندهم بالمرشد الكامل.

ففي عهد الشاه طهماسب الأول (ت 1576م)، قام أحد الأمراء من قبيلة تدعى «تكلو» بالتمرد عليه، ثم لجأ إلى السلطان العثماني، وأخذ يحرضه على مهاجمة الصفويين، وبعد فترة وجيزة نسبياً قام أمير آخر من قبيلة «شاملو» بدس السم للشاه، إلا أن محاولته باءت بالفشل، وأدّت

---

(15) المجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، ج107 ص124.

النزاعات الدائرة بين القزلباش إلى قتل «شيخ زادة حيدر مرزا»، وهو ابن وخليفة شاه طهماسب، مما أدى إلى نقمة الملوك الصفويين عليهم[16]، فحاول الشاه طهماسب تأديبهم لكنه عجز عن ذلك، إلى أن جاء الشاه عباس الأول فأسس قوة جديدة سماها «شاه سون» أي (محبو الشاه)، واستطاع بذلك أن يوقف القزلباش عند حدهم[17].

وقد أدّى سلوك القزلباش إلى تغير سياسة الملوك الصفويين تجاههم، فقد أخذ الصفويون بالبحث عن الفقهاء -ذوي الميول المناهضة للتصوف- ليسلّموهم مقاليد المؤسسة الدينية بكاملها، واستدعى الشاه طهماسب فقهاء من لبنان وبالتحديد من جبل عامل، وتمكن الفقهاء اللبنانيون من صياغة الحركة الفكرية في إيران، وفقا للمقاييس الفقهية، والتي منها معارضة التصوف والوقوف في وجهه، وفي الحقيقة ظهر بين العلماء تياران مناهضان للتصوف:

الأول: التمييز بين التصوّف والعرفان: كان الملا صدرا (ت 1640م) أحد الممثلين الرئيسيين لهذا الاتجاه، وكتب كتابه الشهير «كسر أصنام الجاهلية»، وهاجم فيه التصوف السوقي المصحوب بالبدع والأمور المخالفة للدين حسب تعبيره، حيث قال: «وجدت جماعة من العميان وطائفة من أهل السفه والخذلان، ادعوا علم المعرفة ومشاهدة الحق الأول، ومجاوزة المقامات عن الأحوال، والوصول إلى المعبود، والملازمة

---

(16) زرين كوب، عبد الحسين، دنباله جستجودر تصوف ايران، ص231.

(17) ذكاوتى قراكزلو، على رضا، جنبش نقطويه، ص109.

في عين الشهود، ومعاينة الجمال الأحدي، والفوز باللقاء السرمدي، وحصول الفناء والبقاء؛ وأيم الله إنهم لا يعرفون شيئاً من هذه المعاني إلا بالأسامي والمباني»[18]، وأرجع الملا صدرا سبب هجومه هذا إلى جهلهم بالمعارف وعدم التزامهم بتعاليم الدين[19]، وفي خاتمة كتابه اعتبر هدفه من كتابة الكتاب هو «التنبيه والإعلام لمن له ذوق سليم وقلب صحيح على فساد الزمان وانحراف أكثر الناس عن جادة السلوك إلى طريق العلم والعرفان»[20]، وبهذا ميز الملا صدرا بين التصوف والعرفان، فهاجم الأول في هذا الكتاب، واعتبره أمراً سلبياً، فيما دافع عن الثاني في مختلف كتبه، وخاصة في كتابه «الأسفار الأربعة»، واعتبره أمراً إيجابياً، وقد سار على هذا المنوال تلاميذ الملا صدرا، حتى صار التصوف تعبيراً عن السلوك الفاسد، فيما غدا العرفان مرادفاً للسلوك الصحيح، وأصبح عنوان التصوف أمراً مذموماً ومستهجناً.

الثاني: الرفض المطلق للتصوف والعرفان: ظهر هذا التيار نتيجة ازدياد نفوذ الفقهاء، وانتشار المد الإخباري، ولم يميز هذا التيار -كالأول- بين العرفان والتصوف، أي بين السلوك الصحيح والخطأ، مما أدى إلى سريان الرفض من التصوف إلى العرفان، فظهر من يذم العرفان والعرفاء، ومن يحذو حذوهم، كالملا صدرا وغيره، لمجرد تمسكهم بالعرفان ودفاعهم عنه، حتى وصل الأمر إلى حد التكفير، ولم يقف الهجوم عند هذا

---

(18) صدرالدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم، كسر أصنام الجاهلية ص7-6.

(19) المصدر السابق، ص50.

(20) المصدر السابق، ص217.

الحد، بل تجاوز إلى الفلسفة، لوجود تقارب بين الفلسفة والعرفان، خاصة بعد ما قام به الملا صدرا من الدمج بين نتائج البحث الفلسفي والعرفان النظري.

ونتيجة هذين التيارين القويين المناهضين للتصوف، انهالت الكتب والرسائل الرافضة للتصوف باللغتين العربية والفارسية، مثل كتاب «حديقة الشيعة» المنسوب إلى المقدس الأردبيلي، ورسالة «الفوائد الدينية» لمحمد طاهر القمي، وكتاب «السهام البارقة» لعلي العاملي، وكتاب «النفحات الملكوتية» ليوسف البحراني، و«رساله خيراتيه» لآقا محمد علي[21]، وكتاب «السهام المارقة من أغراض الزنادقة في الرد على الصوفية» للمشهدي[22]، وقد صاحب هذه الحملة دعم قوي من السلطة، التي أعطت مكانة مرموقة للعلماء المناهضين للتصوف، وشنت الدولة حملات إبادة ضد أتباع بعض الطرق، كما حصل لأتباع الطريقة النقطوية.

لم يتمكن التصوف من مقاومة كل هذه الضغوط، فتقهقر أمام الضربات الموجعة التي وجهت إليه، نتيجة تضافر جهود العلماء والدولة للقضاء عليه، حتى إذا جاء القرن السابع عشر، كانت الكثير من المدن لا تجد فيها صوفياً واحداً، وتحولت الخانقاوات التي أخذ يصفر فيها الريح إلى معالم تذكر بما كانت تعج به من الأتباع الكثر، وبما كانت تتمتع به من سطوة ونفوذ، حتى لقد تحدث ابن الكربلائي (مؤرخ صوفي) عن إحدى

(21) بجنوردي، دائرة المعارف بزرك إسلامي، ج8 ص480.

(22) تميم داري، أحمد، عرفان وادب در عصر صفوي، ج1 ص49.

الزوايا في تلك الفترة، وقال إنه لا يوجد فيها أي درويش، لا في هذا المكان ولا في أي مكان آخر[23]، وكانت الضربة القاضية على يد محمد باقر المجلسي (ت 1699م)، عندما صار شيخاً للإسلام في أواخر العهد الصفوي، حيث استطاع توظيف نفوذه الواسع للقضاء على ما تبقى من التصوف في إيران.

ويمكن تلخيص العوامل التي ساعدت على زوال التصوف في إيران بما يلي:

أولاً: الفساد الأخلاقي للقزلباش وتمرداتهم التي شكلت خطراً على الدولة.

ثانياً: كثرة المتصوفة غير الملتزمين بأحكام الإسلام.

ثالثاً: محاولة الطريقة الصفوية احتكار التصوف لصالحها، حيث قامت بالقضاء على باقي الطرق.

رابعاً: نفوذ العلماء والفقهاء الرافضين للتصوف[24].

المشهد الفلسفي

ظهر فلاسفة بارعون في العهد الصفوي، بحيث تمكنوا من إحياء التراث الفلسفي بعد فترة طويلة من الخمود والركود، ومن أبرز هؤلاء الفلاسفة:

---

(23) حداد عادل، دانشنامه جهان إسلام، ج7 ص390.

(24) المصدر السابق، ج7 ص390-389.

الميرداماد

هو محمد باقر الداماد الحسيني الاسترآبادي المعروف بالميرداماد (ت 1631م)، وهو من أهمّ هؤلاء الفلاسفة، ولقب «الداماد» بمعنى «الصهر»، فقد كان والده صهر شيخ الإسلام الكركي، فيكون الكركي جَدّاً للميرداماد من جهة أمه، ويعتبر الميرداماد أكبر فيلسوفٍ في عصره، حيث يذكر في عداد كبار فلاسفة الإسلام، حتى لقب بالمعلم الثالث، فصار في عداد المعلم الثاني الفارابي، والمعلم الأول أرسطو وهو نفسه كان يردد هذا التعبير: «قال شريكنا في التعليم أبونصر الفارابي»[25]، ورغم ذلك لا يمكن أن نعثر في قائمة أساتذته على أستاذ بارز في المجال الفلسفي، بحيث يتناسب مع مستوى تلميذ كالداماد، وهذا يذكّر بابن سينا.

هكذا كان الميرداماد، الذي كان أيضا يتمتع بمؤهلات نادرة، رفعته إلى مستوى كبار الفلاسفة[26]، وعلى الرغم من أنه كان محسوباً على المنهج المشائي، وتابعاً لأفكار ابن سينا، إلا أن المنهج الإشراقي، وفكر السهروردي، لم يكن غائبا عنه، ويمكن رؤية بصمات الفيلسوف الإشراقي في كتب الميرداماد[27]، وهذا يكشف عن الميول العرفانية التي اصطبغ بها فكر هذا الحكيم، حتى أنه كان يتخلص في شعره بالإشراق[28]، وقد تميزت

---

(25) حسيني كوهساري، اسحاق، تاريخ فلسفه إسلامي، ص215.

(26) ابراهيمى ديناني، غلام حسين، ماجراى فكر فلسفى در جهان إسلام، ج2 ص302.

(27) المصدر السابق، ص304.

(28) كوربن، هانري، تاريخ فلسفه إسلامي، ص477.

فلسفة الداماد بتأكيدها على الروايات الشيعية، مما أعطى طابعا شيعيا لمذهبه الفلسفي، وانتقل هذا الطابع إلى تلميذه ملا صدرا، صاحب مدرسة الحكمة المتعالية.

كتب ميرداماد كتاب «الرواشح السماوية في شرح أحاديث الإمامية»، وقام في هذا الكتاب بتلفيق الأحاديث الشيعية، والأفكار الفلسفية، حيث قام بتضمين شرحه للأحاديث شرحا للكثير من أفكاره الفلسفية[29].

وتعد نظرية الحدوث الدهري أهم نظرية فلسفية للداماد، حيث حاول من خلال هذه النظرية التوصل إلى حل للصراع التاريخي الناشب بين المتكلمين والفلاسفة حول حدوث العالم، فقد أصر المتكلمون على الحدوث الزماني حيث اعتبروا وجود زمان -ولو زمان افتراضي- لم يكن هذا العالم موجودا فيه، بينما ألح الفلاسفة على الحدوث الذاتي للعالم، أي أن الفيض الإلهي لم ينقطع أبدا، ولا يوجد زمان لم يكن العالم موجوداً فيه، بل حدوث العالم بمعنى أن كل شيء سوى الله تعالى إذا نظرنا إليه وحده وجدناه لا يستحق إلا العدم، وإنما يأخذ وجوده من الله تعالى، إذاً استحقاقه للوجود مسبوق لاستحقاقه للعدم في ذاته، وهذا ما يسمونه بالحدوث الذاتي.

حاول الميرداماد أن يجمع بين قول الفلاسفة بعدم انقطاع الفيض أبداً، وبين ما قاله المتكلمون من أن العالم مسبوق بعدم واقعي وصريح،

(29) ابراهيمى ديناني، غلام حسين، ماجراى فكر فلسفى در جهان إسلام، ج2 ص303-302.

فجاء بنظرية الحدوث الدهري[30]، حيث قال إن كل مستوى من مستويات هذا العالم يقع في ظرف خاص به، فعالم المادة واقع في ظرف الزمن، وعالم المجردات واقع في ظرف الدهر، وأما الله تعالى فهو واقع في ظرف السرمد، فإذا قارنا بين عالم المادة وظرف الدهر، وجدنا أن عالم المادة معدوم عدماً صريحاً في هذا الظرف، أي أن عالم المادة مسبوق بالعدم الدهري، وهذا ما أطلق عليه اسم «الحدوث الدهري».

ولم يشاطر العديد من فلاسفة العهد الصفوي الميرداماد الرأي بهذه النظرية، فقد نقدها تلامذة الملا صدرا مثل اللاهيجي، والفيض الكاشاني، ومحمد بن علي رضا شارح أشهر كتاب للميرداماد «القبسات»، وكتب الآقا جمال الخونساري رسالة نقد فيها فكرة الحدوث الدهري[31]، وللميرداماد نظريات أخرى نشير اليها بسرعة:

1- أصالة الحركة القطعية في مقابل الحركة التوسطية.
2- فهم خاص للمثل النورية.
3- إثبات أصالة الماهية[32].

كما كان يؤمن بأن المقولات العشر ليست لارسطو، بل لشخص آخر يدعى «أرخوطس» من تلامذة فيثاغورس[33].

---

(30) آشتياني، جلال الدين، منتخباتى از آثار حكماى الهى ايران، ج1 ص26.
(31) ابراهيمى دينانى، غلام حسين، ماجراى فكر فلسفى در جهان إسلام، ج2 ص312-307.
(32) خامنه‌اى، محمد، ميرداماد، ص116.
(33) ابراهيمى دينانى، غلام حسين، ماجراى فكر فلسفى در جهان إسلام، ج2 ص316.

ومن أهم تلاميذ ميرداماد، الملا صدرا، الذي سنتحدث عنه لاحقا، وله أيضا تلامذة آخرون من أهمّهم: أحمد بن زين العابدين العلوي (المتوفى بين سنة 1644 و1650م) الذي شرح بعض كتب أستاذه المعقدة، كما شرح «الشفاء» لابن سينا وسماه «مفتاح الشفاء»، ومحمد بن علي رضا بن آقاجاني، وقد شرح كتاب أستاذه «القبسات» في ألف ومائتي صفحة، وقطب الدين محمد الأشكوري والمعروف بالخطيب اللاهيجي (المتوفى بعد سنة 1664م) وله كتب متعددة في الفلسفة والعقائد والتفسير، والملا شمسا الكيلاني، الذي حضر درس الميرداماد لسنوات عديدة، وقام بشرح أفكار أستاذه في مجموعة من الرسائل الفلسفية، وكان كثير السفر، فقد زار في حياته كل مناطق إيران إضافة إلى العراق وسورية والحجاز، وعلى الرغم من اختلاف الأخير في الرأي مع زميله الأكبر سنا منه، أي الملا صدرا، حيث ذهب الملا شمسا إلى القول بأصالة الماهية تبعا لأستاذه، بينما ذهب الملا صدرا إلى القول بأصالة الوجود، إلا أن هذا الاختلاف لم يفسد قضية الود بين الزميلين، فقد كانت بينهما مراسلات ودية وحميمة جدا[34].

الميرفندرسكي

ومن فلاسفة العصر الصفوي، أبوالقاسم الميرفندرسكي (ت 1640م)، الذي قضى العديد من سنوات عمره في رحلات خارج إيران، وخاصة رحلاته إلى الهند، حيث تعرف على العديد من حكمائها، وكان

---

(34) كوربن، هانري، تاريخ فلسفه إسلامى، ص479-478.

يحظى باهتمام خاص من قبلهم، حتى قام بترجمة بعض النصوص السنسكريتية إلى الفارسية[35].

كان الميرفندرسكي أستاذاً للفلسفة والرياضيات والطب، فقد كان يدرس كتابي الشفاء والقانون لابن سينا في أصفهان[36]، ولكن يحيط حول انتمائه الفكري نوع من الغموض، فهو من جهة كان يدرس الفلسفة المشائية، وكان يؤمن بكل ما هو مشائي، فقد أنكر الحركة الجوهرية واتحاد العاقل والمعقول والمثل الأفلاطونية، وكان يقف إلى جانب المشائين في نزاعهم مع الإشراقيين، وإن أجوبته على أسئلة مظفر الكاشي تؤكد ميوله لأفكار ابن سينا والفارابي[37]، ومن جهة أخرى توجد إشارات على وجود نزعة أفلاطونية لدى الميرفندرسكي، ففي إحدى قصائده المشهورة، والتي نظمها باللغة الفارسية، تظهر النزعة الأفلاطونية لديه بشكل واضح، فقد تعرض في هذه القصيدة لفكرة المثل وأرباب الأنواع التي تعد من أسس الفكر الأفلاطوني.

إن من أهم تلامذة الميرفندرسكي، هو الملا رجب علي التبريزي، الذي قام بإنشاء تيار فلسفي مضاد للملا صدرا، فقد كان تابعا للفلسفة المشائية، كما كان يؤمن بالاشتراك اللفظي للوجود، وينكر الحركة الجوهرية وأصالة الوجود والمثل النورية والوجود الذهني[38]، ومن بين تلامذة الملا رجب علي، نشاهد اسم القاضي سعيد القمي، الذي طرح

(35) المصدر السابق، ص480.

(36) نصر، حسين، سنت عقلاني إسلامى در ايران، ص377.

(37) صدر الدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم، الشواهد الربوبية، مقدمة جلال الدين الاشتياني، ص67-66.

(38) حسينى كوهسارى، اسحاق، تاريخ فلسفه إسلام، ص254-253.

أفكار أستاذه في كتبه، وخاصة في كتابه «شرح توحيد الصدوق»، وأيضا من تلامذته محمد حسن القمي، أخ القاضي سعيد، والملا عباس المولوي، والملا محمد التكابني، والمير قوام الرازي، ومحمد رفيع بيرزادة.

ومن بين تلامذة الميرفندرسكي الذين سعوا إلى نشر أفكار أستاذهم، علي قلي بن قرچغاي خان، الذي ألف كتاباً ضخماً باللغة الفارسية، بين فيه آراء أستاذه الفلسفية، وسماه «احياي حكمت» أي «إحياء الحكمة»[39]، وأيضا من تلامذة الميرفندرسكي، حسين الخونساري (ت 1686م)، الذي كان أستاذاً ماهراً في الرياضيات والهيئة والفلسفة والفقه والتفسير والكلام والحديث، حتى أطلق عليه لقب «أستاذ الكل في الكل»، ومن كتبه: رسالة في الجبر والاختيار، وشرح على الشفاء والإشارات لابن سينا، وشرح على التجريد لنصير الدين الطوسي، وشرح على رسالة في الهيئة للقوشجي.

وللخونساري تلامذة عديدون، منهم ولداه جمال الدين الخونساري، ورضي الخونساري، والملا مسيحا الفسائي (الفسوي) الشيرازي، ومحمد باقر السبزواري له شرح على الشفاء والإشارات[40]، والمرزا رفيعا النائيني له شرح ذو طابع فلسفي على الكافي[41] للكليني، وتعليقه على شرح الإشارات لنصير الدين الطوسي[42].

---

(39) ابراهيمى دينانى، غلام حسين، ماجراى فكر فلسفى در جهان إسلام، ج2 ص333-331.

(40) الشفاء والاشارات كتابان فلسفيان هامان لابن سينا.

(41) الكافي هو أحد المصادر الحديثية الأربعة الرئيسية للشيعة.

(42) كوربن، هانرى، تاريخ فلسفه إسلامي، ص481-480.

صدر المتألهين (الملا صدرا)

صدر المتألهين الشيرازي، المعروف بالملا صدرا (ت 1640م)، هو الشخصية الفلسفية الأهمّ في العهد الصفوي، الذي تمكن من تأسيس مدرسة فلسفية جديدة في مقابل المدرستين الرئيستين في العالم الإسلامي، أي المدرسة المشائية والمدرسة الإشراقية، وقد اعتمد ملا صدرا في بناء هذه المدرسة على العقل البرهاني، والكشف العرفاني، والنقل القرآني، حسب تعبيره، وأهم كتاب ألّفه الملا صدرا هوكتاب «الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة» المعروف بكتاب «الأسفار»، والذي ما زال متداولاً كأهم مرجع في مجال الفلسفة، وككتاب دراسي في الحوزات العلمية الشيعية.

ولد صدر الدين محمد بن ابراهيم القوامي الشيرازي في سنة (1571م) في شيراز، في أسرة مرموقة، فقد كانت أسرة القوامي ذات نفوذ سياسي واقتصادي، وقد شغل أبوه منصب الوزارة لمدة طويلة[43]، ونشأ محمد معززاً مكرماً في حجر والده، الذي حثه على طلب العلم، فاشتغل بالدراسة في شيراز، ولما توفي والده ذهب إلى أصفهان عاصمة الدولة الصفوية، وحضر فور وصوله إلى أصفهان في درس بهاء الدين العاملي، المعروف بالشيخ البهائي، الذي كان يدرس الدروس العليا، ولم يكن يحضر درسه إلا أصحاب المستويات العلمية الرفيعة، وبعد ذلك انقطع إلى درس الميرداماد أكبر فلاسفة عصره[44].

---

(43) نصر، حسين، سنت عقلاني إسلامى در ايران، ص403.

(44) صدر الدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم، الحكمة المتعالية، مقدمة محمد رضا المظفر، ج1 الصفحة: (ج) و(د).

ويمكن تقسيم حياة الملا صدرا العلمية إلى ثلاث مراحل:

أولاً: مرحلة الطلب: وهي مرحلة الدراسة في شيراز وأصفهان، ومرحلة البحث وتتبع آراء المتكلمين والفلاسفة ومناقشاتهم، وقد أبدى ندمه وأسفه على ما اعتبره ضياعا للعمر في استقصاء بحوث المتكلمين والفلاسفة، وذلك عندما وصل إلى مرحلة النضوج الفكري، ولكنه مع ذلك استفاد من هذه المرحلة فائدة كبيرة، ويبدو أنه لم ينضج يومئذ مسلكه العرفاني.

ثانياً: مرحلة العزلة والانقطاع إلى العبادة: انقطع الملا صدرا في إحدى قرى قم النائية، وتدعى «كهك»، حيث انقطع فيها للعبادة والرياضة الروحية، وذلك لإيمانه بأن الطريق الصحيح لتحصيل العلوم هو ترويض النفس، وإعدادها لتلقي المعرفة واستيعابها، وكان السبب الآخر الذي دعاه إلى اختيار العزلة، هوالضغوط التي كان يتعرض لها من قبل بعض الفقهاء الإخباريين وغيرهم، بسبب بعض آرائه الفلسفية، التي لا تروق للكثيرين، حتى وصل الأمر إلى تكفيره.

ثالثاً: مرحلة التأليف: بعد مرحلة النضوج العلمي والتجربة الروحية، بدأ الملا صدرا بتأليف أهم كتبه، وهو «الأسفار الأربعة»، حيث استطاع في هذا الكتاب أن يؤسس لمدرسة فلسفية جديدة تعرف بمدرسة الحكمة المتعالية[45]، ولابد هنا من الإشارة إلى معنى كلمة «الأسفار»، فقد ظن البعض من أمثال «الكونت دوغابينو»، الذي

---

(45) المصدر السابق، الصفحة: (د) و(ز)

زار إيران في القرن التاسع عشر، أن الأسفار جمع «سفر»، بمعنى «رحلة»، وبهذا ظن أن الملا صدرا كان رحالة يجوب البلدان، بينما ظن البعض الآخر مثل «اي. براون» أن الأسفار جمع «سفر» بمعنى «كتاب»، وبهذا ظن أن كتاب «الأسفار الأربعة» عبارة عن مجموعة تحتوي على أربعة كتب، ولكن الصحيح أن الأسفار جمع سفر، بمعنى رحلة، لكن ليس المقصود بها الرحلات المادية بين البلدان والمدن، بل المقصود رحلات معنوية وعرفانية، فمصطلح الأسفار الأربعة مصطلح عرفاني معروف لدى العرفاء، وقد أشار الملا صدرا نفسه إلى هذه الأسفار في مقدمة كتابه حيث قال: «واعلم أن للسلاك من العرفاء والأولياء أسفارا أربعة: أحدها: السفر من الخلق إلى الحق، وثانيها: السفر بالحق في الحق، والسفر الثالث: يقابل الأول لأنه من الحق إلى الخلق بالحق، والرابع: يقابل الثاني من وجه لأنه بالحق في الخلق.»[46].

وبهذا استعار الملا صدرا هذا المصطلح العرفاني لكتابه، فرتبه على أربعة أقسام، لكن بما أن كتاب الأسفار كتاب فلسفي لا عرفاني، لذلك أضاف إلى كلمة «الأسفار» كلمة «العقلية»، لكي لا تختلط مع الأسفار العرفانية، وسمى كتابه «الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة»[47].

بعد سنوات من العزلة قضاها الملا صدرا في قرية «كهك»، وكتب فيها أهمّ وأكثر تأليفاته، أرسل إليه حاكم شيراز «الله وِردي خان»، ودعاه

---

(46) صدر الدين الشيرازي، محمد بن إبراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج1 ص13.

(47) نصر، حسين، سنت عقلاني إسلامى در إيران، ص407.

لتسلم رئاسة مدرسة الخان التي بناها، فقبل الدعوة، وقفل راجعاً إلى مسقط رأسه شيراز، حيث قضى فيها سنين عديدة، مشتغلا بالبحث والتدريس والتأليف، وحوّل مدرسة الخان إلى مركز لتدريس العلوم العقلية في إيران، وقد تخرج على يده مجموعة من الفلاسفة، نذكر أهمّهم فيما يلي:

الملا محسن الفيض الكاشاني: صاحب التصانيف الكثيرة نحو: «الوافي» في الحديث، و«الصافي» في التفسير، و«المحجة البيضاء» في الأخلاق والعرفان، و«أصول المعارف» في الفلسفة والعقائد، وله أيضا ديوان شعر باللغة الفارسية، اتبع فيه أسلوب حافظ الشيرازي، الشاعر الشهير العرفاني، في التعابير عن آرائه العرفانية وتجاربه الروحية.

الملا عبدالرزاق اللاهيجي: وله كتب فلسفية وكلامية كثيرة، والطابع الغالب عليها هوالكلام الفلسفي، وأهم كتبه هي: «شوارق الإلهام في شرح تجريد الكلام»، و«حاشية على شرح الإشارات» للطوسي، وكتاب «كوهر مراد» أي «جوهر المراد»، بالفارسية، وشرح رسالة «هياكل النور» للسهروردي، مما يدل على إلمامه بالفلسفة الإشراقية، وقد كان شاعراً وله ديوان شعر باللغة الفارسية.

الملا حسين التنكابني: وله حاشية على «الشفاء»، وعلى «حاشية الخفري على التجريد».

محمد بن علي رضا بن آقاجاني: وله شرح على كتاب «القبسات» للميرداماد[48].

كان الملا صدرا زاهداً عابداً معرضاً عن الدنيا، وقد حج بيت الله الحرام سبع مرات، وفي أكثرها يحج مشياً على الأقدام، وكانت في سابعتها منيته، حيث توفي في البصرة ودفن فيها، وذلك في طريق عودته من مكة إلى إيران سنة (1640م).

مدرسة الحكمة المتعالية

لقد أسس الملا صدرا مدرسة فلسفية جديدة، تختلف في المنهج مع المدرستين الرئيسيتين المشائية والإشراقية، فقد كانت المدرسة المشائية تعتمد العقل كأساس وحيد لاكتساب المعرفة، فيما كانت المدرسة الإشراقية تولي البحث العرفاني والكشفي أهمية أساسية، وتعتبر البحث البرهاني بحثاً تابعاً، بينما قام الملا صدرا بالاستعانة بكل مصادر المعرفة وهي: البرهان والعرفان والقرآن، فحاول أن يثبت الحقائق الإلهية عن طريق المشاهدة والكشف العرفاني، ويستدل عليها بدليل عقلي برهاني، ويؤيد تلك الحقائق بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة[49]، فهو يؤمن بوجود تطابق تام بين هذه الطرق الثلاثة للمعرفة، ويعتقد خصوصاً بوجود تطابق

---

(48) خامنهاي، محمد، سير حكمت در ايران وجهان، ص279-277.

(49) جوادى آملى، رحيق مختوم، ج1 ص19-16.

تام بين العقل والشرع، وقد قال: «حاشى الشريعة الحقة الإلهية البيضاء أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينية الضرورية، وتباً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسنَّة»[50].

وبهذا استطاع الملا صدرا إبداع مدرسة فلسفية من نوع جديد، ولكن عندما نقارن هذه المدرسة بسابقاتها، نرى أن المدرسة الصدرائية تقوم على أساس تجميع آراء مختلفة من المذهبين المشائي والإشراقي في الفلسفة، والمدرستين الأشعرية والاعتزالية في الكلام، ومدرسة ابن العربي في العرفان النظري، فهي في الحقيقة تشكل مجموعة انتقاءات من مدارس متنوعة فلسفية وكلامية وعرفانية، حتى أنه يقوم في بعض الأحيان بنقل صفحات كثيرة من كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، أو«المطالب العالية» لفخرالدين الرازي، و«الفتوحات المكية» لابن العربي، وكتب أخرى، مما أثار بعض الفلاسفة المشائين مثل «الحكيم جلوه» بنقد ملا صدرا، وتوجيه اتهام السرقة الأدبية له.

وعلى الرغم من ذلك لا يستطيع القارئ المتابع لكتب ملا صدرا أن يغض النظر عن الأسلوب البديع في تجميع الآراء، وإعطاء وجهات نظر بديعة أحيانا، فلم يقتصر إبداع ملا صدرا على المنهج فقط، بل تعداه إلى محاولة إثبات الكثير من الأفكار الدينية والعرفانية بالدليل العقلي، بعد أن عجز الفلاسفة والعرفاء عن إثباتها، مثل مسألة المعاد الجسماني، التي أظهر ابن سينا عجزه عن إثباتها بالعقل، فاضطر إلى الاكتفاء بإثباتها

---

(50) صدر الدين الشيرازي، محمد بن إبراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج8 ص303.

بواسطة النقل، بينما تمكن الملا صدرا من إقامة برهان عقلي عليها[51].

لقد أحدثت أفكار الملا صدرا قفزة في الفكر الفلسفي الإيراني، حيث فرضت فلسفته نفسها على الحياة العقلية في إيران إلى هذا العصر، أي حوالي أربعة قرون[52]، وفيما يلي قائمة بأهم الإبداعات الفلسفية التي أضافها الملا صدرا:

1- إثبات أصالة الوجود واعتبارية الماهية.
2- التشكيك في الوجود.
3- إقامة برهان جديد على وحدة الوجود.
4- إبداء تفسير جديد للعلاقة بين العلة والمعلول على أساس الوجود الرابط.
5- نظرية الإمكان الفقري وتقرير جديد لبرهان الإمكان والوجوب.
6- تقرير جديد لبرهان الصديقين.
7- حل مشكلة علم الواجب بالأشياء قبل وجودها، باعتبار العلم بها هوعلم إجمالي في عين الكشف التفصيلي.
8- نظرية بسيط الحقيقة هو كل الأشياء.
9- نظرية الحركة الجوهرية.
10- نظرية اتحاد العاقل والمعقول.
11- نظرية أن النفس جسمانية الحدوث وروحانية البقاء.

---

(51) آشتيانى، جلال الدين، شرح حال وآراى فلسفى ملا صدرا، ص29-19.

(52) صدر الدين الشيرازي، محمد بن ابراهيم، الشواهد الربوبية، مقدمة جلال الدين الاشتياني، ص60.

12- نظرية أن النفس في وحدتها كل القوى.

13- إقامة برهان عقلي على المعاد الجسماني.

14- حل مشكلة الوجود الذهني عن طريق التمييز بين الحمل الأولي الشائع.

15- إضافة وحدة الحمل إلى وحدات التناقض الثمان.

16- تعميق بحث المفاهيم الماهوية والفلسفية والمنطقية[53].

---

(53) المصدر السابق، وأيضا راجع: نصر ، حسين، سنت عقلاني إسلامى در إيران، 425-411.

خاتمة

إن الفترة الصفوية في مجال التصوف، أوصلت الحركة الصوفية في إيران إلى قمتها، كما أن السلسلة الصفوية أقيمت على أكتاف أتباع الطرق الصوفية، ولكن بعد استقرار الحكم وظهور خلافات بين الطرق الصوفية والسلاطين الصفوية من جهة، وبينهم والفقهاء من جهة أخرى، تحملت الطرق الصوفية ضربات عنيفة وشديدة، مما سبب انحسار دورها تماما في المجتمع الإيراني، وتقوية دور الفقهاء في المقابل.

وفي المجال الفلسفي أيضاً، شهدت هذه الفترة محاولات هامة في استخدام الفلسفة كلامياً لشرح وتوضيح المعتقدات اللاهوتية والشيعية منها خاصة، ببيان وأسلوب فلسفي، وهكذا يمكننا اعتبار هذه الفترة، مرحلة تأسيس عهد جديد في اللاهوت الشيعي الإيراني، حيث تحول الإيرانيون من التصوف -الذي كان بدوره من أسباب انتقال الإيرانيين من التسنن إلى التشيع- إلى الخطاب الفقهي والمؤسسة الفقهية الشيعية، وركبوا منظومة متناسقة من الأفكار الكلامية والفلسفية للمذاهب المختلفة السابقة، مطعّما برؤية عرفانية، مستخدمين إياها دعما للرؤية الشيعية.

العلوم والفنون والآداب في العهد الصفوي

فاطمة الهاشمي(*)

يعد العصر الصفوي من الحقب الهامة في تاريخ إيـران، وهذه الأهمية كانت بسبب تعزيز الأسس العلمية والحضارية التي مرت بها إيران في ذلك العصر، الـذي شهد تـطورات كثيرة، وظهرت مؤلفات حديثة في مختلف المجالات منها: الفلسفية والعرفانية والأدبية والفقهية، وكذلك العلوم الطبيعية كالرياضيات والفلك والطب، وهـذه التطورات كانت ترمز إلى تكوين حركة حديثة، وبعبارة أخرى: كان هذا العصر يحمل في طياته كل مستلزمات بناء الحضارة.

(*) باحثة إيرانية من أصول عراقية.

من أهم الجوانب الحضارية في العصر الصفوي، انتشار العلم والكتب والمدارس والفنون، ولهذا أصبحت الدولة الصفوية تمثل حقبة ذهبية للإنسان الإيراني، يتمنى أن يستعيدها مرة ثانية، ويبرمج لذلك الساسة الإيرانيون، ويتأملون أن يصلوا إلى قمة ازدهارهم الذي كان في ابتداء القرن الخامس عشر الميلادي، وهذا البحث يهدف للوقوف على دور الصفويين في دفع عجلة الازدهار في كافة المجالات، ومنها العلوم والفنون.

أولاً: العلوم الدينية

كان مطلع القرن الحادي عشر مسرحاً للتيارات الفكرية المختلفة، فمن منكبّ على العلوم الطبيعية كالنجوم والرياضيات والطب التي معيارها التجربة، إلى آخر متوغل في الحكمة والعرفان والمعارف العقلية، التي لا تدرك إلا بقسطاس العقل، إلى ثالث مقبل على علم الشريعة كالفقه والأصول والحديث والتفسير. وفي تلك الأجواء المشحونة ظهرت المدرسة الإخبارية التي شطبت على العلوم العقلية بقلم عريض، ولم تر للعقل أي وزن واعتبار لا في العلوم العقلية ولا في العلوم النقلية، وقد رفع رايتها الشيخ محمد أمين بن محمد شريف الاسترآبادي الإخباري في كتابه الموسوم «الفوائد المدنية» الذي ألفه في المدينة المنورة أيام إقامته بها، وتتلخص فكرته في الأمور التالية:

1- عدم حجية ظواهر الكتاب إلا بعد ورود التفسير عن أئمة أهل البيت، رضي الله عنهم، لما ورد من الأحاديث الناهية عن تفسير القرآن

بالرأي أولاً، وطروء مخصصات ومقيدات على عمومه وخصوصه ثانياً.

2- نفي حجية حكم العقل، وعدم الملازمة بين حكم العقل والنقل.

3- نفي حجية الإجماع وغيرها من الأدلة الأصولية والفقهية ما عدا الأخبار والروايات[1].

لقد أثرت هذه الحركة على جميع العلوم الدينية آنذاك، وغيرت مسارها، وفرضت عليها مراجعة الأخبار والروايات، والاحتراز من مخالفتها في شتى الحقول.

أ- الفلسفة واللاهوت

حصلت الفلسفة والحكمة في العصر الصفوي على نمو واضح، وبعد التدقيق والإمعان في النصوص العقلية والحكمة في هذه الحقبه، يمكن استخلاص أن العلاقة بين الفلسفة والعرفان والكلام من جانب، ومحاولة التقريب بين العقل الفلسفي والنصوص الشرعية من جانب آخر، أسست فلسفة خصوصاً في أصفهان اشتهرت بالمدرسة الفلسفية-الإلهية، وعلى أساس ذلك ظهرت الحكمة المتعالية للملا صدرا على أساس هذا المكتب، ومزج ملا صدرا الأفكار والمعتقدات الشيعية بالأفكار الفلسفية، وركب منظومة فكرية متكاملة تدعم النمو الشيعي المتصاعد آنذاك في إيران، وكان أبرز مؤلفات الملا صدرا هو كتاب "الأسفار الأربعة"، ومن

---

(1) للمزيد من الاطلاع راجع: تاريخ الفقه الإسلامي و أدواره، جعفر سبحاني، صص 385-384.

أهم المسائل المستحدثة في الفلسفة الصدرائية هي أصالة الوجود، واتحاد العاقل والمعقول، والحركة الجوهرية[2].

ومن النتاجات الهامة الأخرى لحركة الفلسفة في هذا العصر، بروز الحكيم "ميرفندرسكي"، الذي كان حكيماً مشائياً، وكان يؤمن بأسلوب التفكير والتمعن في الفلسفة[3]، وأيضاً "ميرداماد"، المعروف في إيران بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، باعتبارهما المعلمان الأول والثاني، وكان أساس الفلسفة عند ميرداماد، متكون من تلصيق منسق بين الفكر البرهاني والوضع العرفاني، وقد سميت فلسفته بالعرفانية لأن سير العقل والذهن يدله إلى الإيحاءات القلبية والبصائر الروحانية.

ولو نظرنا إلى الفلسفة في هذه الحقبة بإمعان، لوجدنا أن العصر الصفوي ينبغي تسميته بعصر تجديد حياة الفلسفة الإسلامية، التي كانت قد اندحرت من البلاد الإسلامية، بسبب تغلب الفكر الأشعري المناهض للفلسفة[4].

ظهرت محاولات كثيفة أيضاً في حقل علم الكلام، خصوصاً المباحث الشيعية منها نحو موضوع الإمامة، وأيضاً شرح بعض الكتب الكلامية الشيعية المدرسية، نحو تجريد الاعتقاد للخواجة الطوسي، والذي

---

(2) مقتبسات من آثار الفلاسفة الإلهية في إيران، سيد جلال الدين آشتياني، جامعة فردوسي، مشهد، 1355هـ/1936م، المجلد الاول، ص63.

(3) المصدر السابق، ص71و72.

(4) مقدمة (تو شيكيهوايزوتسو) على كتاب (قبسات) لميرداماد، ص109.

شرحه عدد من علماء الصفوية[5]، ولكن الفلسفة في تلك الحقبة لم تكن مستقلة عن الكلام، بل تمثل هذه الفترة قمة ازدهار الكلام الفلسفي، وهو استخدام الفلسفة في بيان وإثبات المعتقدات الكلامية، وبهذا استطاع التشيع أن يخرج من عزلته ويجذب الكثيرين من غير الشيعة، ويفرض عليهم المعتقدات الشيعية من غير حاجة لاستخدام العنف والقوة.

ب- العرفان والتصوف

إن العرفان ظاهرة مهمة وعريضة في تاريخ ثقافة إيران، ومن مراجعة النصوص العرفانية المتبقية من هذا العصر، نجد أن العصر الصفوي كان عصر ظهور فرق صوفية عديدة، فلا يمكن مقارنة العرفان في هذا العصر مع ما كان قبل غزو المغول في القرن السابع الهجري، ثم نجد الجانب (العرفاني والذوقي) في باب وحدة الوجود والشهود والتوحيد والفناء وأمثالها في شخصيات حكيمة وعرفانية، مثل الشيخ البهائي وميرداماد ومير فندرسكي وملا صدرا وملا محسن الفيض وأمثالهم، وانتقلت أفكار هؤلاء إلى شخصيات عرفانية مهمة لها تأثيرها البالغ في الساحة الثقافية الإيرانية إلى الآن، ومنهم السهروردي وابن العربي وعبد الرزاق الكاشاني والقيصري وكذلك الإمام الغزالي.

وما يميز العرفان النظري في هذه الفترة عما كان قبلها، هو أنّ علوم العرفان والفلسفة والنصوص الدينية الشيعية قد اندمجت في

(5) للمزيد من الاطلاع راجع: صفوية از ظهور تا زوال (الصفوية من الظهور الى الزوال)، رسول جعفريان: ص115.

منظومة منسجمة، حتى غدت مكونات لمجموعة واحدة ومتكاملة[6]، ومن أهم نماذج هذا الاندماج هو كتاب «محجة البيضاء» لملا فيض الكاشاني، وهو في الحقيقة إعادة صياغة كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، بحيث يكون خاليا من الأفكار السنّية، وملائما للمعتقدات والروايات الشيعية، فقد حذف الفيض من الكتاب الروايات والمعتقدات السنّية المخالفة لمعتقد الشيعة، وأضاف عليه روايات ومعتقدات شيعية، والنموذج الهام الآخر هو السيد حيدر الآملي (ت 794هـ/1391م)، وهو وإن لم يعش الحقبة الصفوية، إلا أنه كان قريبا منها، ويعتبر أحد المكونات الرئيسية للمناخ الصفوي، فاستطاع تسويق أفكار ابن العربي، العارف السنّي الشهير، لصالح المعتقدات الشيعية، وقدم قراءة شيعية عن التراث العرفاني المتنامي آنذاك في إيران.

ج- الفقه وعلوم الشريعة

تميز القرن العاشر وأوائل الحادي عشر الهجري، بغزارة الإنتاج الفقهي وكثرة الفقهاء، وذلك لأنه قد تأسست في مستهل القرن العاشر الهجري (905هـ/1499م) دولة شيعية على يد السلطان إسماعيل الصفوي، وكانت تلك الدولة في أشد الحاجة إلى دساتير وقوانين شرعية تتناسب مع المذهب الرسمي للدولة، وسنستعرض هنا حصيلة الجهود التي أنجزت في هذا القرن:

(6) مقدمة من (توشيكيهو ايزوتسو) على كتاب (قبسات) لميرداماد، ص109.

1- ظهور مؤلفات في الفقه الحكومي حول الخراج وصلاة الجمعة وغيرها، وهذه سابقة لم يعرفها المذهب الشيعي من قبل، لأن التشيع لم يصبح مذهبا رسميا للبلاد قبل الصفوية، وكان علماء الشيعة مجمعين على حرمة تأسيس الحكم في عصر غيبة الإمام الثاني عشر.

2- ظهور موسوعات فقهية كبيرة تضم جميع البحوث والفروعات الفقهية حسب المنظور الشيعي، ومن أهمها «جامع المقاصد» للشيخ علي الكركي في ثلاثة عشر مجلداً، و«مجمع الفائدة والبرهان» للمقدس الأردبيلي في أربعة عشر مجلداً، و«الحدائق الناضرة» للشيخ يوسف البحراني في خمسة وعشرين مجلداً، وهذا يؤشر على وجود ضرورة ماسة وحاجة ملحّة للفقه الشيعي في مجتمع تحكمه دولة شيعية فتية تريد تطبيق قوانين الشريعة، حيث تظهر موسوعات عديدة وضخمة في فترة قصيرة نسبياً.

3- العناية بفقه القرآن عناية وافرة، فقد أُلفت في ذلك القرن عدة كتب حول آيات الأحكام.

4- الاهتمام الفائق بمقدمات الفقه من علم الرجال، وتصحيح الأسانيد، والدراية وفقه الحديث وتجميع الروايات الشيعية.

د- الأحاديث والروايات الشيعية

لقد أسدى علماء ومحدثو الشيعة خدمات هامة للحديث، بالاستفادة من الظروف السانحة التي مهدها الجهاز الحاكم، وسيادة الفكر الإخباري الجديد، ويتميز هذا العصر بميزتين بارزتين: جمع المجاميع الحديثة وجمع الروايات التفسيرية.

كما بذلت جهود حثيثة في جمع كتب الحديث التي كانت في كراسات صغيرة الحجم، مبعثرة في مجاميع ضخمة للحيلولة دون ضياعها أو تلفها، إذ من الواضح أن فرص ضياع كراسة ذات حجم صغير أكبر من فرص تلف أو ضياع جامع ضخم مؤلف من عشرات الأجزاء، ولهذا السبب تم عرض مجاميع حديثة متعددة بأسلوب خاص، وسنقوم بتعريف أهم المجاميع المكتوبة في هذا العصر، وهي كالآتي:

الأول: الوافي: وهو من تأليف ملا محمد محسن المعروف بالفيض الكاشاني (ت 1091هـ/1680) جمع فيه روايات الكتب الأربعة الشيعية (الكافي، من لا يحضره الفقيه، الاستبصار، والتهذيب) فحسب، مع حذف المكرر منها، ووضع التوضيحات اللازمة من قبل المؤلف، وقد نظمت هذه المجموعة في أربعة عشر باباً، ومن أهم عناوينها: كتاب «العقل والعلم والتوحيد»، كتاب «الحجة»، كتاب «الإيمان والكفر»، كتاب «الطهارة والتزيين»، كتاب «الصلاة والدعاء والقرآن»، كتاب «الزكاة والخمس والميراث»[7].

الثاني: وسائل الشيعة: تأليف محمد بن الحسن الحر العاملي (ت 1104هـ/1692م) جمع فيه الروايات الفقهية فقط، وقد بلغ مجموعها (35868) رواية، نقلها المؤلف عن كتب الحديث الأربعة الشيعية، فضلا عن كتب حديثية أخرى[8]، ولهذا الكتاب أهمية

---

(7) دروس في نصوص الحديث و نهج البلاغة، مهدي المهريزي،ص126.

(8) المرجع السابق نفسه، ص128.

بالغة في الدراسات الفقهية الشيعية، حيث لا يستغني عنه أي مدرس أو طالب في الحوزات الشيعية في المراحل المتقدمة من الدراسات الفقهية، كما أضيف عليه مجموعة أخرى من الروايات في فترة لاحقة، ضمن كتاب «مستدرك الوسائل» للميرزا حسين النوري المتوفى (1320هـ) ويحتوي الكتاب على (23129) حديثاً، وخُتم -تبعاً للحرّ العاملي- بفوائد تناول فيها المصادر والمأخذ، وتتمة لنظرات صاحب الوسائل[9].

الثالث: بحار الأنوار: وهو من مؤلفات محمد باقر المجلسي (ت 1111هـ/1699م) وهو أضخم الجوامع الحديثة للشيعة، ولم يؤلف مثله في سعته وشموله، حيث يقع في مائة وعشرة أجزاء حسب الطباعات الحديثة، ويشتمل على معارف دينية متنوعة تشمل العقائد، التاريخ، معرفة العالم، الأخلاق والفقه[10]، نظم العلامة المجلسي كتابه «بحار الأنوار» في خمسة وعشرين مجلداً أهمها: العقل والجهل والعلم، التوحيد والأسماء الحسنى، النبوة وقصص الأنبياء، المواعظ والحكم، القرآن والأدعية، العقود والإيقاعات[11]، وتشكل هذه الموسوعة أكبر وأهم مرجعية دينية لشيعة إيران، حيث تضم منظومة كاملة من المعتقدات والأحكام والتفسير وسائر العلوم الدينية حسب تصورات الشيعة، كما أنها

---

(9) المرجع السابق نفسه، ص136.

(10) المعجم المفهرس لألفاظ أحاديث بحار الأنوار:1ص75-74.

(11) دروس في نصوص الحديث، مرجع سابق، ص130-134.

تعكس الإضافات والزوائد التي أضيفت إلى التشيع في العهد الصفوي، خصوصاً أن تاريخ تأليفها يرجع إلى نهايات العصر الصفوي في عهد الشاه حسين الصفوي، الذي أسقطه الأفغان، وأهم ما فيه وجود ثلاثة مجلدات ضخمة حول مطاعن الخلفاء الثلاثة الأولى، كانت قد حذفت من الطبعات الحديثة، ولكن أعيد طبعها بعد الثورة الإسلامية في قم في نسخ معدودة، وتم توزيعها بشكل محدود.

ودونت مجاميع حديثية أخرى، ولكنها ضاعت ولم تر النور، ومن أهمها: جامع الأخبار في إيضاح الاستبصار، لعبد اللطيف بن علي بن أحمد الهمداني الشامي العاملي(12)، وجوامع الكلم، للسيد محمد الجزائري(13).

هـ- تفسير القرآن

لا يشكل القرآن مصدراً حقيقياً للفكر الشيعي، لشيوع فكرة انحصار فهم القرآن على الأئمة الشيعة حسب ما هو معروف بينهم: «إنما يعرف القرآن من خوطب به»، ولهذا السبب نشاهد أن أكثر الجهود التفسيرية الشيعية انصبت في جمع الروايات التفسيرية فحسب، وقلما نحصل على نماذج من التفسير العقلي أو الاجتهادي، والنماذج الموجودة كالتبيان للطوسي ومجمع البيان للطبرسي، ترجع إلى فترات زمنية

---

(12) الذريعة إلى تصانيف الشيعة: 38-5/37.

(13) المصدر نفسه، 5/253.

متقدمة حيث كان الفكر الشيعي متأثراً بالفكر المعتزلي، وأما بعد غلبة الفكر الإخباري وخصوصاً في العهد الصفوي، انحسرت تلك الجهود، وتركزت الدراسات التفسيرية على جمع الروايات وتبويبها وتصنيفها وشرحها أحياناً.

وعلى هذا الأساس يجيب أحد كبار الفقهاء المعاصرين حول جواز تفسير القرآن: «إنما يعرف القرآن من خوطب به، وليس لأحد تفسير القرآن، أي كشف القناع عنه من عند نفسه، ولكن ذلك غير العمل بالظواهر والاجتهاد والاستدلال بظاهر القرآن، لا باس به بعد المراجعة إلى الروايات المتضمنة للمقيدات والقرائن، على ما هو دأب المجتهدين والفقهاء»[14].

هذا، وهناك عدد كبير من علماء الشيعة في العهد الصفوي، اشتغلوا في حقل التفسير الروائي، يصل عددهم إلى مائة وثمانين مفسراً، قدموا تفسيراً لكل أو بعض القرآن، منهم: الملا فتح الله الكاشاني، صاحب تفسير«منهج الصادقين» باللغة الفارسية، ميرزا محمد المشهدي، صاحب تفسير «كنز الدقائق وبحرالغرائب»، والمحقق الأردبيلي، صاحب تفسير «زبدة البيان في براهين أحكام القرآن» وعشرات الكتب الأخرى، وبإمكان القارئ، مشاهدة الطابع الروائي الغالب على هذه التفاسير، وابتعادها عن التفسير العقلي الاجتهادي أو الدرائي (من الدراية).

---

(14) راجع موقع آية الله العظمى محمد صادق الروحاني:
http://www.istefta.com/ans.php?stfid=7613&subid=12

حفظت بعض هذه التفاسير سيطرتها العلمية في المدارس الدينية الشيعية إلى الآن وهي: تفسير «نور الثقلين» لعبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، ويعد هذا الكتاب دورة تفسيرية مفصلة للقرآن على أساس الروايات، جمع فيه (13422) رواية مع ذكر أسانيدها في أغلب الأحيان، وطبع في خمسة أجزاء، وقد سرد المؤلف الأحاديث وفق ترتيب السور والآيات، وتفسير «البرهان في تفسير القرآن» للسيد هاشم الحسيني البحراني، وقد رتب فيه الروايات طبقاً لترتيب السور والآيات مع ذكر الأسانيد وعنوان المصدر، وخصص المؤلف الجزء الأول -الذي جعله كمقدمة- لمباحث تمهيدية حول باطن القرآن والتفسير والتأويل[15].

ثانياً: العلوم الطبيعية والرياضيات

سبّب الاستقرار السياسي في فترات من في العهد الصفوي، ازدهاراً لعدد من العلوم الطبيعية، وخصوصاً ما كان بإمكان الملوك استخدامه في إعمار المدن والبلاد، وشملت الجهود العلمية في هذه الفترة مجالات عديدة من الطب والرياضيات والنجوم وغيرها.

أ- الطب وعلم الأدوية

لم يؤلَّف في العصر الصفوي أي كتاب طبي كبير، وإنما ألفت كراسات ورسائل صغيرة، كانت تحتوي على أبحاث معينة، أو شرحت

(15) نهضت علمى در دوران صفوي (النهضة العلمية في العهد الصفوي)، نصرالله شاملي، ضمن مجموعة مقالات نشرتها جامعة أصفهان بعنوان «Science / Scientific Movement» سنة 2000.

الكتب الكبيرة السابقة، على الرغم من أهمية تلك الشروح والرسائل، ولكن لم ير العصر الصفوي تنظيراً جديداً في علم الطب، ولا تطويراً أو تكميلاً للنظريات الطبية القديمة.

صادف ابتداء العصر الصفوي بتأليف كتاب «زبدة قوانين العلاج»، لمحمد بن هبة الله السبزواري، الملقب بـ «نجاة الطبيب»، وقد صنف الكتاب على أساس كتاب السيد إسماعيل الجرجاني، الذي ألفه سنة 538هـ/1143م، وأهداه إلى أحد ملوك الخوارزمشاهيين قبل العهد الصفوي بكثير، فاختص القسم الأول من الكتاب بما يعرفونه عن فيزيولوجيا الإنسان إلى تلك الحقبة، وثم تبدأ الأبحاث الرئيسية التي تعالج أمراض جسد الإنسان، والصفحات التالية تشير إلى علم الولادة والأمراض النسائية، وكلا الكتابين ينتهيان بفصل خاص حول صناعة الدواء[16]، ومن أهم الكتب المؤلفة الأخرى في هذا المجال كتاب «ستة ضرورية»[17]، ليوسف بن محمد بن يوسف الهروري الذي ألفه سنة 941هـ/1534م[18].

ب- النجوم والرياضيات

ظهر عدد كبير من العلماء في النجوم والرياضيات في هذه الفترة، ومنهم بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي، وقد

---

(16) طب دردوره صفويه، سيريل جود، ص23-20.

(17) كان أطباء العصر الصفوي يعرفون جيداً أن بعض الأسباب الخارجية ايضاً تؤثر في تأمين صحة الإنسان. وكانوا يتصورون أنها ستة فكانوا يسمونها: ستة ضرورية.

(18) للمزيد من المعلومات راجع: تاريخ إيران- دوره ى صفوي، عدد من الباحثين في جامعة كمبريج، المترجم: يعقوب آجند، ص288-293.

بقيت آثاره في الرياضيات والفلك زمناً طويلاً مرجعاً وكتاباً مدرسياً يستقي منه طلاب المدارس القديمة، ومن أشهر مؤلفاته: رسالة الهلالية، وكتاب تشريح الأفلاك، والرسالة الأسطرلابية، وكتاب خلاصة الحساب.

وقد اشتهر الكتاب الأخير كثيراً، وانتشر انتشاراً واسعاً في الأقطار بين العلماء والطلاب، وأظهر البهائي فيه إبداعات جديدة في علم الحساب، وخصوصاً في الجبر والمقابلة. ونراه يستعمل في حلول بعض المسائل الرياضية طرقاً جبرية، وفي بعضها الآخر طرقاً حسابية، يجد فيها الطالب ما يشحذ ذهنه ويقوي منه ملكة التفكير[19].

أُلفت في العصر الصفوي رسائل نجومية كثيرة، ومن أبرز مؤلفيها بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، والذي ألف حول النجوم باللغة العربية كتاب «تشريح الاختلاف»، وكتبت شروح فارسية عديدة على هذه الرسالة، وألف البهائي أيضاً رسالة «تحفه حاتمي» باللغة الفارسية، وهي رسالة صغيرة حول الأسطرلاب[20]، وكان أهدى الأخيرة إلى ميرزا حاتم بيك وزير الشاه عباس الأول.

كان الملوك الصفوية يهتمون كثيراً بعلم النجوم، لا لأنه ذا أثر بالغ في تعيين الأوقات الشرعية والأعياد الإسلامية وحسب، بل لاعتقادهم

---

(19) تراث العرب العلمي في الرياضيات و الفلك، قدري حافظ طوقان، ص474-480.

(20) الاسطرلاب عبارة عن آلتين تسمى أحدهما (أم) و تحتوي على قطعة (اليداد) أو (الناظور) و كان يستعمل لتعيين ارتفاع النجوم و يقع وسط صفحة "وفرس". والآلة الثانية التي فيها صفحات رفيعة وعادةً كانت توضع على القطب المركزي، تستعمل للمحاسبات النظرية. و كانت الصفحة العنكبوتية في أسطرلاب (سميت بهذه التسمية لأنها كانت شبكة) تحدد دائرة البروج والصور النجومية كما تحدد المواقع الثابتة الحساسة.

بتأثير النجوم في مجريات الأمور والأحداث، فقد كان للشاه عباس، منجم خاص هو «جلال الدين محمد اليزدي» وكان الشاه يستشيره ويرجع إليه في كثير من الشوؤن، ومن الطرائف أن الشاه صفي غير اسمه بسبب تنبؤ بعض المنجمين بسقوط الملك في تلك السنة، ونصحوه بأن يغير اسمه لدفع البلية المترقبة، فغير اسمه ألى شاه سليمان[21].

ثالثاً: الفنون

بلغت الفنون الجميلة في العصر الصفوي درجة من الرقي والإبداع، حيث امتاز الذوق الفني بأن كل الأساليب الفنية التي كانت إيران قد أخذتها من الشرق الأقصى في عصر المغول والعصر التيموري، تطورت واندمجت بالذوق الإيراني، كما امتاز الفن الإيراني في هذه الفترة بزيادة الميل إلى قصص الأبطال الإيرانيين القدماء، وبالإقبال على تصوير هذه القصص في المخطوطات وغيرها من التحف الفنية، كما نرى اهتماما بالغا بتصوير بطولات الإمام علي والحسين بن علي، وكانت تستخدم هذه الصور في مسرحيات عامة في شتى مدن إيران، وخصوصاً العاصمة أصفهان، وعني الفنانون -فضلاً عن ذلك- بتصوير بعض النواحي الطبيعية، وتجلى ذلك في الصور والزخارف[22].

---

(21) تاريخ سياسي اجتماعى إيران در عصر صفوي (تاريخ إيران السياسي و الاجتماعي في العهد الصفوي)، مريم ميراحمدي، منشورات اميركبير، طهران، 1992، ص210–213.

(22) الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، محمد حسن زكي، ص36.

وقد صارت صناعة السجاد وزخرفته، وكذلك صناعة القيشاني وصناعة العمارة أيضاً موضع تشجيع واهتمام الملوك الصفويين[23]، لذلك زاد عدد المراكز الفنية في إيران، وأثر نشاطها في جميع الميادين الفنية، فامتد نفوذها إلى تصميم الفسيفساء الخزفية، التي كانت تزين جدران العمائر وقببها، كما ظهر أيضاً من زخارف المنسوجات بأنواعها المختلفة.

وقد نقل الشاه عباس مقر الحكم إلى أصفهان في نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر ميلادي، وعني بتجميلها، وبني فيها المساجد والقصور والجسور والطرق، وأصبحت المدينة من أكثر مدن الشرق ازدهاراً، وصارت في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، المحور الذي تدور حوله الحياة الفنية الإيرانية[24].

كان شاه عباس يحب الفنون الجميلة كمثل: الخط والزخرفة والرسم والفخار وصناعة الكاشي، وكان يدعو الفنانين من أقصى مدن إيران إلى عاصمته أصفهان، ويعين لهم رواتب عالية ومزايا ليستخدموا مهاراتهم الفنية في تجميل أصفهان، كما أنه اصطحب عدداً من الفنانين بمن فيهم الخطاطون وصانعو الزخرفة وغيرهم إلى مشهد في سنة 1010هـ/1601م، عندما سافر إليها ماشيا ليجدد بناء مرقد الإمام علي الرضا، الذي خربه الأوزبك بعد سيطرتهم على مشهد.

(23) تاريخ أدبيات إيران، ذبيح الله صفا، ص176.

(24) الظواهر الأدبية في العصر الصفوي، محمد السعيد عبد المؤمن، ص48-49.

رابعاً: الأدب

تشكل المدائح والمراثي أهم ما أنتجته الحقبة الصفوية في مجال الأدب، وكان الملوك الصفوية لا يهتمون بالشعر والأدب إلا إذا كان موجهاً نحو دعم المذهب الشيعي، وسبّب هذا هجرة عدد كبير من الشعراء والأدباء الإيرانيين إلى الهند، حيث كان يرحب بهم ملوك الهند، وأبدع هؤلاء الشعراء والأدباء أسلوبا جديداً في الأدب الفارسي، يعرف بالأسلوب الهندي.

يقول الباحث الإيراني الشهير في حقل الأدب الفارسي، محمد تقي بهار: «إن أول ما يسترعي النظر في الأدب الصفوي، هو كثرة الكتب التي ظهرت في المسائل المذهبية والموضوعات الدينية، فجرت أقلام الكتاب في الحديث والأخبار والفقه والأصول، وبذلك كان النثر وسيلة العلماء إلى التعريف بالمذهب الشيعي، وتبيان أصوله وشرح غوامضه، لتعميم نشره والإعلاء من شأنه، والنثر لغة العلم التي تخاطب العقول والأفهام، كما أن الشعر لغة القلب التي تخاطب الأحاسيس والأحلام، وهاتان اللغتان كانتا خير وسيلة إلى نصرة التشيع وتقريبه من عقول القوم وقلوبهم»[25].

ومن ناحية أخرى أثرت النزعة الصفوية، وسطوة الفقهاء الشديدة في انخفاض الإبداع الشعري، فهرب كثير من الشعراء إلى

---

(25) سبك شناسي، محمد تقي بهار، ج 3، ص256.

الهند، مثلما تقدم، ليحلوا في بلاطات ملوك الهند المغوليين، الذين رحبوا بهؤلاء كثيراً، فظهر أسلوب جديد في الشعر الفارسي، يعرف بالأسلوب الهندي[26]، ومن أهم الشعراء في ذلك العصر: مولانا ضميري أصفهاني، ومحتشم القاساني، ومولانا وحشي يزدي، وولي دشت بياضي، والشيخ بهائي[27].

شاع إنشاد الشعر المذهبي قبيل قيام الدولة الصفوية، فكان هناك عدد كبير من الشعراء ينشدون أشعاراً في مدح آل البيت، والبكاء على من استشهد منهم، وشرح بعض عقائد الشيعة والدفاع عنها أمام أهل السنَّة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الشعر المذهبي، وهذا اللون من الشعر -وإن كان قد ورد في الأدب الفارسي في فترة سابقة- إلا أنه لم يكن بالكثرة التي ترى في هذه الفترة، فقد كان سلاطين قراقونيلو (دولة تركمانية) يميلون إلى مبادئ ومعتقدات الشيعة، ولم يكن حضور الشيعة في خراسان أقل من غرب إيران، حيث كانت هناك طوائف شيعية قوية في بعض المدن مثل سبزوار ومشهد وولايات العور.

على أية حال أخذ هذا اللون من الشعر شكلاً جديداً، وتبلور أكثر في العصر الصفوي، عندما بلغت الدعوة الشيعية ذروتها، وقد كان الشعر المذهبي في هذه الفترة يتخذ موضوعين من موضوعات الشعر وسيلة للتعبير، هما المدح والرثاء حول علي بن أبي طالب وأبنائه وأحفاده، وأما

(26) تاريخ روابط إيران وهند (تاريخ علاقات إيران و الهند)، رياض الإسلام، الترجمة الى الفارسية: محمدباقر آرام، مطبعة سبهر، طهران، 1994، ص 251–262.

(27) خلد برين، محمد يوسف واله اصفهاني، منشورات مؤسسة موقوفات الدكتور افشار، طهران، 1993، ص 473-477.

أشعار الرثاء فكان معظمها ينظم في الإمام الثالث الحسين بن علي، ثم بقية من استشهد من الأئمة[28].

خامساً: المعمار

حينما نقل الشاه عباس العاصمة إلى أصفهان عام 1006هـ/1597م، حرص على تزيينها، وقام بتشييد العديد من المباني الفخمة فيها، وكذلك إنشاء الميادين والحدائق العامة، وقد بذل في هذا المضمار جهداً كبيراً، ظهر في الآثار العديدة التي خلفها، كما سجله المؤرخون والرحالة المستشرقون آنذاك، ونتيجة لما بلغته أصفهان من رقي وتقدم لم تبلغه في أي عصر من عصورها السابقة، راج تعبير مشهور وهو «أصفهان نصف جهان»، أي أصفهان نصف العالم، وهذا التعبير لم يكن ليروج إلا إذا كانت أصفهان غاية في الجمال والأبهة والعظمة، وتفوق جميع مدن إيران في ما حظيت به من آثار جلية في الإبداع والجمال، حتى أن الزائر لها كان يشعر بلمسات الذوق الرفيع والفن العالي المنزلة في كل مكان بها، حيث أصبحت المدينة معرضاً للفن، ونتيجة لشدة اهتمام الشاه عباس بأصفهان، والعناية بجمالها وزينتها، فقد أصبحت عاصمة تعج بالسكان وبالسائحين، حتى ذكر البعض بأن تعداد سكانها في عهد الشاه عباس بلغ حوالي ستمائة الف نسمة[29].

---

(28) الظواهر الأدبية في العصر الصفوي، محمد السعيد عبدالمؤمن، مكتبة الانجلو المصرية، ص 23–148 وللمزيد من الاطلاع حول تاريخ مجالس العزاء الشيعية و الاضافات الفارسية اليه راجع: تراجيديا كربلاء، ابراهيم الحيدري، منشورات دارالكتاب الإسلامي، قم.

(29) أفهان و آثار تاريخي آن (أصفهان و آثارها التاريخية)، عباس إقبال، مجلة يادكار، السنة الثانية، العدد 9، 1325م، ص2.

ما زال الكثير من الآثار التي شيدت في عصر الشاه عباس قائماً حتى اليوم، ناطقاً بالجمال، وتجد الكثير من السواح يقبلون على زيارته والتمتع بجماله الفني، ولكن بعض هذه الآثار قد امتدت إليه يد التخريب أيام حكم الدولة القاجارية، فجميع الآثار والأبنية التي كانت موجودة على الضفة اليمنى لنهر زاينده رود، والتي أفاض السياح الأجانب في وصفها لم يعد لها وجود الآن[30]، وأهم الآثار التي خلفها الشاه عباس في أصفهان هي:

ميدان نقش جهان: يقع هذا الميدان وسط مدينة أصفهان تقريباً، وكانت هذه المساحة الكبيرة معدة لإقامة المسابقات وركوب الخيل والرمي بالسهام، وأحياناً عراك الديكة، وبعد فترة من الزمن تغير اسم هذا الميدان من «نقش جهان» إلى «ميدان الشاه» إشارة إلى شاه عباس[31].

عالي قاپو: بعد فترة من نقل العاصمة إلى أصفهان، صمم الشاه عباس أن يكمل بناء عمارة صغيرة مطلة على ميدان نقش جهان في الجهة الغربية، حتى يتخذ العمارة مقراً لحكمه، وقد أطلق على المبنى الجديد اسم (عالي قابو)، أي «الباب العالي»، وهذا القصر يشتمل على ثلاثة طوابق رئيسية، كل طابق منها ينقسم إلى طابقين، أي أنه في الحقيقة يشتمل على ستة طوابق، ويبلغ ارتفاع الطوابق كلها ثمانية وأربعين متراً، في حين يبلغ ارتفاع المدخل الرئيسي ثمانية وعشرين متراً[32].

---

(30) الشاه عباس الكبير، بديع محمد جمعة، دار النهضة العربية، 1980، ص120-121.

(31) إيران در زمان صفويه (إيران في العهد الصفوي)، ص266.

(32) المصدر السابق نفسه.

مسجد الشيخ لطف الله: بُني هذا المسجد في الضلع الشرقي من ميدان نقش جهان، أي في الجهة المقابلة لعمارة المسجد والمدرسة الملحقة به، ليكونا مقراً لإقامة وإمامة الشيخ لطف الله العاملي، وهذا المسجد يندر أن يوجد له نظير في الدنيا بأسرها، نظراً لما فيه من قيشاني (نوع من الآجر يستخدم في تزيين القباب)، يغطي القبة من الداخل والخارج، وقد سطرت عليه الكثير من الآيات القرآنية والعبارات المختلفة بطريقة تتسم بعلو منزلتها، وجمال إخراجها[33].

مسجد الشاه: يقع هذا المسجد في الضلع الجنوبي من ميدان نقش جهان، أي أنه يتوسط عمارة عالي قابو ومسجد الشيخ لطف الله، وهذا المسجد يحتوي على ثلاث قبب وأربعة أروقة، أكبرها الرواق المتجه صوب القبلة، وقبة الرواق الكبير أعلى من القبتين الأخريين[34].

سادساً: الغناء والموسيقى

تعد مسألة حلّية الغناء والموسيقى من المسائل التي أثارت جدلاً واسعاً في تلك الحقبة من الزمن، ويعزو البعض بداية ظهور الجدل حول الغناء في الفقه الشيعي إلى رسالة العالم المعروف ملا باقر الخراساني، الذي اشتهر بلقب المحقق السبزواري المتوفى سنة 1090هـ/1679م، فقد ألف رسالة مستقلة في الغناء[35]، وأما موقف السلاطين تجاه الغناء

---

(33) المصدر السابق نفسه.

(34) آثار ملي اصفهان (آثار اصفهان الوطنية)، ص664؛ الشاه عباس الكبير، ص130-136.

(35) ميراث فقهي غناء وموسيقي، رضا مختاري، ج 3،ص1595؛ نشوء وسقوط الدولة الصفوية، كمال السيد، ص 241-242.

والموسيقى فقد تغير من محلل أحيانا إلى محرم في أحيان أخرى، حسب مدى تأثير الفقهاء المتشددين على السلاطين، وإرغامهم على تطبيق الشريعة، وأما الجديد في هذه الحقبة فكان ظهور نوع خاص من الغناء والموسيقى الخاصة بمجالس التعزية، التي كانت تقام سنويا بمناسبة مقتل الإمام الحسين، وهي مستمرة إلى الآن في إيران، بل وانتقلت إلى بلدان عربية كالعراق ولبنان والبحرين[36].

سابعاً: الفلزات

شهد العصر الصفوي استعمال بعض الفلزات كالنحاس والحديد، في أواني الزينة، وكذلك في أدوات الحرب، وأغلب الأعمال الفنية والتزيينية كانت تستعمل على السندانات والأشياء التي تستخدم في المنازل، كأواني الأطعمة والأشربة، وفي أكثر الأحيان كانوا يحفرون رسوماً بديعة على هذه الفلزات، كما كانوا يحكون عليها أشعاراً عرفانية أو أبيات من بعض الشعراء المعروفين[37].

ثامناً: المنسوجات والحياكة

وصلت الأقمشة الصفوية -من الجانب الفني، في تصاميم ساتانية وقطيفة ومطرزة بأحجار ثمينة- إلى ذروة تطورها، ومضافاً إلى

---

(36) نشوء وسقوط الدولة الصفوية، كمال السيد، ص 241-242 و للمزيد من الاطلاع راجع: تراجيديا كربلاء، ابراهيم الحيدري، مصدر سابق.

(37) تاريخ فرهنك وتمدن ايران در دوره صفوى (التاريخ الثقافي والحضاري لإيران في العهد الصفوي)، عباس قدياني، ص145-146.

ذلك أنتجب في هذا العصر أقمشة من الحرير الجذاب ومنقش بالأعشاب، كانت كاشان ويزد وأصفهان وقم وسأوه من المدن المهمة في صناعة الحرير، وكانت الأقمشة الصفوية متنوعة بشكل كبير، ولكن الحرير هو الأهم والأبرز فنيا[38]، وكانت الأقمشة الحريرية تدخل إلى الأسواق المحلية في العصر الصفوي بثلاثة أنواع: الحرير العادي، الحرير المطرز، القطيفة الحريرية، وكانت ألبسة الملوك والستائر والأزياء التي تهدى إلى المندوبين أو ملوك البلدان الأخرى من أكثر موارد استهلاك هذه الأقمشة، إن صور الإنسان والحيوان والنبات كانت تشكل خلفية أكثر النقشات، وكانت المعامل الملكية في العواصم والمدن الأخرى أكبر مصانع لهذه الأقمشة، وكانت الأشهر في الأسواق العالمية[39].

كانت الحياكة أكثر الحرف التقليدية في إيران، كما انتشر التلوين الفني أيضاً عند الإيرانيين، وأعطى التلوين الفني بالألوان الطبيعية لفن الحياكة جمالاً ودواماً أكثر، وكان العصر الصفوي قد شهد تطوراً كبيراً في هذا الفن، مثلما كان في الفنون الأخرى، وورثنا بعض الآثار الفنية في الحياكة من تلك الحقبة، ومنها حياكة السجاد الثمين من الخيوط الحريرية والذهبية[40].

---

(38) تاريخ إيران- دوره صفويان، ص397-401.

(39) تاريخ فرهنك و تمدن ايران در دوره صفوى (التاريخ الثقافي و الحضاري لإيران في العهد الصفوي)، عباس قدياني، ص145-146.

(40) تاريخ سياسى و إجتماعى إيران در عصر صفوي (تاريخ إيران السياسي والاجتماعي في العهد الصفوي)، مريم مير احمدي، ص243.

تاسعاً: الرسم والخط والزخرفة

كان شاه إسماعيل يحب الرسم كثيراً، ويرحب بالفنانين الغربيين، فأمر فناناً برتغالياً أن ينقش رسوماً في أحد قصور الملك في شيراز المعروفة بـ«عمارت كلاه فرنكي»، وكانوا يستخدمون الرسم في تزيين البيوت وأسقف العمارات، وكثيرا ما كانت بعض الرسوم لشخصيات دينية أو روحية أو سياسية معروفة في ذلك العهد، كمثل: ميرفند رسكي، الشيخ بهائي، والشاه عباس، وغيرهم، والبعض الآخر لشخصيات أسطورية كرستم وسهراب، أو شخصيات دينية كالإمام علي وولديه الحسن والحسين، وكان من أهم الرسامين المعروفين في هذا العصر: ماني الشيرازي، كمال الدين بهزاد[41]، ومن أهم الخطاطين: خواجه محمود سيأو شي المعروف بـ«محمود إسحاق»، ومحمد حسين التبريزي[42].

وتطورت أيضاً صناعة الفخار الصيني والكاشي، فقد استدعى شاه عباس عدداً من الفنانين الصينيين ليعلموا الفنانين الإيرانيين صناعة الفخار الصيني، وازدهر هذا الفن كثيراً في إيران منذ ذلك الحين، وأبدعوا فيه كثيراً، كما ازدهرت كذلك صناعة الكاشي في هذا العهد، واستخدم الفنانون إبداعهم في تزيين المساجد والقصور[43].

---

(41) شاه إسماعيل صفوي، محمد بناهي، منشورات كتاب نمونه، طهران، ص 245–250.

(42) زندكى شاه عباس اول، نصر الله فلسفي، منشورات جامعة طهران، ص 374–407.

(43) تاريخ صفوية، احمد تاجبخش، منشورات نويد شيراز، الطبعة الاولى، 1998، ص ص10–200.

الأسرة الصفوية:
شيوخها وملوكها

محمد المعموري(*)

مثلت الدولة الصفوية منعطفاً كبيراً في تاريخ بلاد فارس (إيـران حالياً) في فترة ما بعد دخولها الإسلام، فقد استطاعت الأسرة الصفوية أن تحفظ سيطرتها الروحية أولاً والسياسية ثانياً على مناطق شاسعة من تلك البلاد، وصولا إلى السيطرة عليها تماماً، وعلى بعض البلاد المجاورة لها أحياناً.

(*) كاتب عراقي.

المعروف أن الصفوية كانوا من الأتراك، وكان الكثير منهم يجيد التحدث بإحدى اللهجات التركية، فكان الشيخ صفي الدين الأردبيلي، الجدّ الأكبر للفرقة الصفوية، يتقن اللغة التاتية جيداً، وهي إحدى اللغات المحلية لأهل أذربيجان، ويمكن معرفة هذا الأمر عن طريق مطالعة أشعاره، والتي كتبت باللغة التاتية، ولكن تؤكد بعض الدراسات التاريخية أن الشيخ «صفي الدين» كان من النسل الثامن للملك «فيروزشاه زرين كلاه»، وكان فيروزشاه كردياً من سينجار، وحين انتشر الأكراد في أذربايجان وأران، هاجر إلى مدينة أردبيل في القرن الرابع وسكن قريباً منها.

وعلى الرغم من ذلك كان الشيوخ الصفوية ينسبون أنفسهم إلى الإمام موسى الكاظم، سابع أئمة الشيعة واختلقوا شجرة أنساب كاذبة، تثبت انتسابهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، عبر الإمام السابع، كما أنهم كانوا يدّعون نيابة الرسول والإمام الحجة (المهدي)، مستعينين لذلك بادعاء انتسابهم النسبي إلى النبي، فاستطاع الملك إسماعيل بهذا الادعاء أن يكسب شعبية كبيرة عند الجمهور الإيراني المتعاطف تاريخيا مع أهل بيت النبي، ويعتقد أحمد الكسروي المحقق المعاصر، وباحثون آخرون، أن الصفوية لم يكونوا سادة أبداً، ويؤكد أن نسلهم يعود إلى «فيروز شاه زرين كلاه»، الذي كان كردياً من أهالي سينجار شمال العراق[1].

(1) شيخ صفي وتبارش (الشيخ صفي وأجداده)، أحمد كسروي، طهران، عام 1332م، ص5.

الشيخ صفي الدين

يعتبر صفي الدين، مؤسس الطريقة الصفوية، أول شخصية استطاعت توظيف التصوف لمصلحة أبنائها وعائلتها، وقد اهتمّ الشيخ صفي الدين الأردبيلي بدراسة علوم زمانه منذ حداثة سنه، وسافر إلى مدن مختلفة للبحث عن المراد ومرشد الطريقة، فكانت نتيجة رحلاته المتعددة لقاءه بالشيخ تاج الدين إبراهيم الجيلاني، المعروف بالشيخ زاهد (615هـ/1218م – 700–هـ/1300م) في مدينة لاهيجان من توابع جيلان، وكان صفي الدين يتمتع بالذكاء والفطنة، فأصبحت له كرامة ومنزلة عظيمة عند أستاذه الشيخ زاهد الجيلاني، ويقال بأنه فطن إلى نبوغ الشيخ صفي الدين منذ اللقاء الأول، واعتبره أحد الفاتحين الأقوياء في العالم، لدرجة أنه اختاره نائباً ووصياً لنفسه[2].

وبعد أن نال الشيخ صفي الدين هذا الفخر والشرف، واجه مخالفة من ابن الشيخ زاهد المسمى بجمال الدين علي، فظهرت نزاعات داخل أتباع الطريقة، إلى أن استطاع الشيخ صفي إقناع الجميع أن الولاية الروحية لا تنتقل من صلب إلى صلب، وابن المرشد لا يتمتع بالضرورة بالصفات التي تمنحه السلطة الروحية، وتجعله واجب الإطاعة على أتباع الطريقة، فلهذا السبب لن يستحق جمال الدين علي أن يكون نائباً وخليفة لأبيه الشيخ زاهد، ولكن الملفت للنظر أن الشيخ صفي الدين بعد أن أصبح

(2) إيران عصر صفوي (إيران في العصر الصفوي)، راجر سيوري، الترجمة الي الفارسية: كامبيز عزيزي، طهران، منشورات سحر، الطبعة الثانية ، 1987، ص 8.

شيخ الطريقة، أعلن أن النيابة والخلافة لا تنتقل إلا من الأب إلى الإبن[3]، فأراد الشيخ بهذا القرار حفظ قيادة الطريقة في آل الصفوية، لكيلا تخرج القدرة من هذه العائلة، ويبين هذا الأمر أن الشيخ صفي الدين كان يريد أن يستغل الطريقة الصوفية التي أصبح من أكبر مشايخها، لمصالحه الشخصية ولرفعة موقع أسرته[4]، وكسب الشيخ صفي الدين في منصب المرشد الأعظم، مقاماً يشابه مقام السلاطين وأرباب القدرة السياسية، وأسس خانقاها[5] في أردبيل، وأصبح هذا الخانقاه مركزا لنهضة دينية شعبية واسعة في المستقبل.

كان الشيخ يحمي الفقراء والمساكين، ولهذا أصبح بيته في أردبيل مأمنا للمحرومين والفقراء، واشتهر الشيخ صفي الدين في زمن حياته بأنه صاحب كرامات عديدة، ولكن لم يكتسب شعبيته من القداسة والكرامة والمقامات المعنوية فحسب، بل كان لموقعه الاجتماعي وثروته الطائلة التي اكتسبها من الهدايا والهبات الكثيرة بمرور الزمن، دخلاً أيضاً في محبوبيته وشعبيته بين الناس[6]، فكان بعض من الملوك ورجال الدولة الكبار يدعمون الشيخ صفي الدين ويحبونه.

---

(3) دنباله جستجودر تصوف إيران (تتمة البحث عن التصوف في إيران)، عبدالحسين زرين كوب، منشورات امير كبير، طهران، الطبعة الثانية، 1997م، ص232.

(4) إيران عصر صفوي (إيران في العصر الصفوي)، راجر سيوري، الترجمة الي الفارسية: كامبيز عزيزي، طهران، منشورات سحر، الطبعة الثانية ، 1987، ص8.

(5) الخانقاه مكان كان يجتمع فيه مشايخ الصوفية والدرويش، ويذكرون فيه الأذكار والأوراد ويؤدون مناسكهم الخاصة هناك .

(6) تاريخ إيران در دوره صفويان (تاريخ إيران في العهد الصفوي)، مجموعة من الباحثين في جامعة كمبريدج، ترجمة الى الفارسية: يعقوب آجند، طهران، منشورات جامي، 2001م، الطبعة الاولى، ص 10.

كان «حمد الله المستوفي» معاصراً للشيخ صفي، وله كتاب تاريخي يتحدث فيه عن وقائع زمانه بعنوان «تاريخ جزيده» أي «التاريخ المنتخب»، فحين يتحدث عن أحداث عام 730 الهجري/1329 الميلادي، ويصادف هذا التاريخ خمس سنوات قبل وفاة الشيخ صفي الدين، يقول: «ما زال الشيخ صفي الدين على قيد الحياة، وهو رجل فطن وله شعبية عظيمة، وقد منع المغول من إيذاء الناس ببركة جاذبيته وتأثيره عليهم، وهذا عمل عظيم الشأن»[7].

كان الشيخ صفي يتمتع بعلاقات حسنة مع حكام زمانه، إلا أنه لم يتدخل في الشؤون السياسية أبداً، ويُذكر أن الخواجه رشيد الدين فضل الله، وزير غازان خان المغولي كان مريداً له، وكان يعزه ويكرمه، حتى أنه كان يرسل له مصاريف الخانقاه إلى أردبيل في كل عام، وكان يوصي باحترامه وإكرامه[8]، وكان للشيخ صفي الدين مجموعة كبيرة من المريدين والمحبين الذين انتشروا في أنحاء العالم الإسلامي، وكانوا سبباً لاستحكام الحكومة الصفوية الفتية، وشكلوا أرضية مساعدة جداً لظهور وانتشار الطرق الصوفية في إيران[9].

---

(7) تاريخ كزيده، حمدالله مستوفي، باهتمام عبدالحسين نوايي، منشورات اميركبير، طهران، عام 1339 الشمسية، ص 675.

(8) تشكيل دولت صفوي (قيام الدولة الصفوية)، محمد كريم يوسف جماني، منشورات اميركبير، اصفهان، الطبعة الاولي، 1993م، ص 56.

(9) راجع: سيري در تصوف وعرفان إيران (نظرة في التصوف والعرفان الإيراني)، محمود عبدالصمدي، منشورات شرق، طهران، 1982، ص57-56.

الشيخ صدر الدين

بعد وفاة الشيخ صفي الدين، تولى ابنه الشيخ «صدر الدين» المتوفى في عام 793هـ/1390م، قيادة الطريقة الصفوية، واكتسبت الخانقاه في أردبيل منزلة كبيرة، وهاجر الكثير من أتباع الطريقة الصفوية إلى مدن متعددة في زمانه، وقاموا بحركة تبشيرية واسعة في البلاد المجاورة لأردبيل.

تصادفت فترة حياة الشيخ صدر الدين مع فتوحات «تيمورلنك»، وقيل إن تيمور كان يهتم بالشيخ صدر الدين وقد قابله عدة مرات، وإنه مر ثلاث مرات من أردبيل خلال حروبه المتعددة، والتقى بالخواجه صدر الدين، ولكن الرواية ليست قوية، وشكك بها بعض المؤرخين، وحتى القدماء منهم.

يقول «إسكندر منشي» وهو من مشاهير الكتّاب في زمن شاه عباس الصفوي، في كتابه: «معروف بين الجمهور (عامة الناس) أن الأمير تيمور قد قابل حضرة السلطان صدر الدين موسى؛ لكن الحقيقة أن من قابل تيمور هو السلطان خواجه علي، ولم أشاهد هذه الرواية في الكتب التاريخية الموجودة عن السلسلة الصفوية لحد الآن»[10]، ولو أن بعض المؤرخين المعاصرين قد شككوا في هذا اللقاء أيضاً، فعلى سبيل المثال،

(10) عالم آراي صفوي، المؤلف مجهول، منشورات بنياد فرهنك إيران، طهران، 1970، ص 162.

يعتبر أحمد كسروي رواية لقاء الخواجه علي مع تيمور، رواية مصطنعة وغير حقيقية[11].

الشيخ خواجه علي

بعد ممات صدر الدين، خلفه ابنه الشيخ خواجه علي، وهناك روايات شعبية كثيرة أيضاً حول مكانته عند تيمور، تقول إحداها إن تيمور كان يخشى خواجه علي ويخاف من اهتمام الناس به وقدرته المعنوية، فسقاه كأساً من السم في أحد لقاءاته، ثم بدأ الدراويش الحاضرون في مجلسه بقراءة الأذكار العرفانية، والتحق بهم خواجه علي إلى أن استغرقوا بالرقص والسماع العرفاني، فخرج السم من جسم الشيخ إثر التعرق الشديد، فاندهش تيمور من هذا الأمر، ومنذ ذلك اليوم أصبح من مريدي الشيخ، وأمر أتباعه بعدم إيذائه، ووهب موقوفات له ولأتباعه أيضاً، ثم حرر تيمور الأسرى الذين أسرهم في هجومه على العثمانيين إكراماً للشيخ[12].

وسواء صحت تلك الرواية أم لم تصح، فعلى أية حال من المؤكد تاريخياً أن قدرة الصفويين قد ازدادت في عهد التيموريين[13]، حيث

---

(11) بازهم صفوية (الصفوية مجددا)، أحمد كسروي، مجلة آينده، العدد 11، اسفند 1306 الشمسية، طهران، ص 806.

(12) إيران عصر صفوي (إيران في العصر الصفوي)، راجر سيوري، الترجمة الى الفارسية: كامبيز عزيزي، طهران، منشورات سحر، الطبعة الثانية، 1987، ص12 و13.

(13) تاريخ أدبيات إيران (تاريخ الأدب الإيراني)، إدوارد براون، ترجمه إلي الفارسية: رشيد ياسمي، منشورات مكتبة ابن سينا، الطبعة الثالثة، طهران، 1345 الشمسية، الجلد الرابع، ص56.

اشترى تيمورخان قرى ومزارع كثيرة في مناطق مختلفة من إيران، ووهبها لأولاد السلطان خواجه علي من الذكور[14]، ثم أمر تيمور بانتقال أراضي أردبيل وكل القرى والأرياف التابعة لها كوقف لآل الصفوية، وأصبح خانقاه الشيخ خواجه علي مركزاً قوياً من الناحية المادية والمعنوية، ومأوى آمناً لكل لاجىء، حتى لأخطر المجرمين الهاربين من السلاطين[15].

أصبحت الطريقة الصفوية ذات طابع شيعي علني في زمن الخواجه علي؛ الأمر الذي لم يذكره التاريخ في سيرة المشايخ الصفوية قبله، ولكن لم تذكر المصادر التاريخية أن الخواجه أعلن بصراحة التحول من المذهب السنّي إلى التشيع، كما أنه احتفظ بالعادة الصوفية السائدة، وهي الانعزال عن السياسة، وعدم التدخل في شؤون السلاطين.

الشيخ جنيد

بعد وفاة الخواجه علي، استلم ابنه الشيخ «جنيد» قيادة الطريقة الصفوية، وكانت سيرة الشيخ جنيد تختلف عن سيرة أجداده لأنه كان يحاول دائماً أن يكتسب قدرة سياسية إضافة للقدرة الدينية التي اكتسبها من الخانقاه، أو الزاوية المشهورة لأجداده، وكان أجداد الشيخ جنيد

(14) سلسلة النسب الصفوية، ابدال زاهدي، برلين، 1343 الهجري القمري، ص48.

(15) تشكيل دولت ملي در إيران (قيام الدولة القومية في إيران)، والتر هينش، ترجمة الي الفارسية: كيكاووس جهانداري، منشورات خوارزمي، طهران، 1982م، ص5.

يحظون بالعزة والاحترام من قبل الملوك والحكام في زمنهم، ولم يطلبوا المقامات الدنيوية أبداً. يقول «فضل الله روزبهان الخنجي»، أحد العلماء الإيرانيين المخالفين للصفوية في كتابه عن تاريخ إيران في تلك الحقبة: «تخلى جنيد عن طريقة آبائه وأجداده»[16]، ويقصد الخنجي أن جنيداً كان يسعى لكسب القدرة الدنيوية، ويطمع في فتح البلدان.

اختلف الشيخ جنيد في ابتداء أمره مع عمه جعفر، وتنازعا لكسب مقام القيادة الصوفية، ولكن عمه انتصر عليه، فاضطر الشيخ جنيد لمغادرة أردبيل والهجرة إلى آسيا الصغرى، وتعرف هناك على الكثير من المزارعين والفلاحين من العلويين المحبين لمذهب الشيعة، وفيهم الكثير من الميول المغالية، فكانوا يمنعون ذكر اسم الخلفاء الثلاثة في منطقتهم.

ولا نعلم بالضبط أن الشيخ جنيد قد تشيع قبل هجرته للأناضول وآسيا الصغرى، أم بعد هجرته، لكنه كان رجلاً بليغاً متكلماً، واستطاع أن يجذب الكثير من المزارعين الأتراك بادعائه السيادة وسحر كلامه، فكانت نتيجة جهوده، تأسيس جيش كبير مكون من خمسة إلى عشرة آلاف جندي من أتراك الأناضول المريدين له، بعد ذلك هاجم الشيخ جنيد مع جنده مدينة طرابوزان[17]، لكنه لم ينتصر في هذه الحرب.

---

(16) تاريخ إيران در دوره صفويان (تاريخ إيران في العهد الصفوي)، مجموعة من الباحثين في جامعة كمبريج، ترجمة الي الفارسية: يعقوب آجند، طهران، منشورات جامي، 2001م، الطبعة الاولي، ص18.

(17) مدينة تركية على سواحل البحر الاسود.

ثم التقى الشيخ جنيد بالملك «أوزون حسن»[18] ملك سلسلة «آق قويونلو»[19] المقتدر، وقد زوّج الملك أوزون حسن، أخته «خديجة بيكم» للشيخ جنيد، وأيده ودعمه وساعده للعودة إلى أردبيل، فاستطاع جنيد أن يهزم عمه ويحصل على منصبه في قيادة الطريقة الصفوية، وبعد عودته إلى أردبيل، هاجم الشيخ جنيد، بلد «التشركس»، لكنه لم يفلح في هذه الحرب، بل قُتل على يد الملك «شروانشاه».

الشيخ حيدر

بعد مقتل الشيخ جنيد، كبر ابنه «الشيخ حيدر» وترعرع عند خاله الملك «أوزون حسن»، وحظي بدعمه وتأييده. كان حيدر يطلب ثأر أبيه، ولهذا استمر في طريق والده ليجمع بين المقامات الدنيوية والمقامات الروحية، وكان أول شخص من العائلة الصفوية يحقق نجاحات باهرة في المجال العسكري والسياسي، فهيأ جيشاً يعرف بالقزلباش[20] من مؤيديه،

---

(18) هو أقوى وأشهر ملوك آق‌قويونلو فاستطاع ان يهزم شاه جهان (ملك دولة قره قويونلو) ويحكم سيطرته على تبريز وصولا إلى خراسان، وبعد ذلك استطاع أن يهزم أبوسعيد من ملوك الايلخانية ويسيطر على بغداد.

(19) أحد السلاسل التركية الحاكمة على إيران قبل الصفوية، التي استطاعت أن تسيطر على بلاد شاسعة من قوقاز إلي خراسان شرقا وإلي بغداد والخليج جنوبا. حكمت تلك السلسلة بين 1378–1508. للمزيد من الاطلاع راجع: دايرة المعارف بزرك إسلامي (دائرة المعارف الإسلامية الكبري)، مقالة: آق قويونلو.

(20) كلمة تركية بمعني «الرؤوس الحمراء» وهي تسمية لأتباع الصفوية لأنهم كانوا يضعون قلنسوة حمراء على رؤوسهم بأمر من المرشد الصفوي. يقال بأن الشيخ حيدر رأى أمير المؤمنين في المنام فقال له: سيظهر ولد من أولادك قريباً يحيي سنتنا ويمحو الكفر من العالم، فيجب أن تصنع تاجاً للصوفيين ولمحبيك ... ثم صنع الإمام تاجاً مكوناً من اثنتي عشرة قطعة بعدد الأئمة الاثنا عشر. وحين استيقظ الشيخ من النوم، صنع قبعة القزلباش الحمراء بنفس الشكل الذي رآه في المنام.

وجهزهم بالسلاح والعتاد، و استطاع الشيخ حيدر أن يدرب رجاله على السلاح، ويربيهم تربية عسكرية بمساعدة الظروف المهيأة برعاية خاله أوزون حسن[21].

يذكر «فضل الله روزبهان الخنجي» في كتابه: «كان (الشيخ حيدر) يقضي معظم أوقاته في تهيئة السلاح والعتاد، كالسهام والرماح، وكان ماهراً جداً في صنع سلاح الحرب وآلات الطعن والقتل»[22]. وبعد أن هيأ الشيخ حيدر جنود القزلباش، بدأ بنشر مذهب التشيع والجهاد مع كفار «التشركس»، وبدأ بالحرب في سنة 874هـ/1469م، وقُتل على يد الملك «شروانشاه» أخيراً.

الملك إسماعيل الصفوي

ولد الملك إسماعيل في عام 866هـ/1461م في مدينة أردبيل، وحين كان طفلاً رضيعاً، قُتل والده الشيخ حيدر في الحرب مع شروانشاه، ووقع إسماعيل وإخوته ووالدته في الأسر وسجنوا بأمر من «يعقوب آق قويونلو» في قلعة قرب مدينة «اسطخر فارس» لمدة أربع سنوات ونصف[23].

---

(21) تشكيل دولت صفوي (قيام الدولة الصفوية)، محمد كريم يوسف جماني، منشورات أميركبير، أصفهان، الطبعة الأولي، 1993م، ص76.

(22) تاريخ عالم آراي اميني، فضل الله روزبهان خنجي، تصحيح وتحقيق: محمد أكبر عشيق، طهران، منشورات ميراث مكتوب، الطبعة الأولى، ص23.

(23) دايرة المعارف بزرك إسلامي (دائرة المعارف الإسلامية الكبرى)، مادة: إسماعيل أو ل صفوي، مهدي كيواني.

وبعد موت السلطان يعقوب، تنازع ولداه «رستم ميرزا» و«بايسنقر» على الملك، وأراد رستم أن يستعين بجيش القزلباش التابع للخانقاه الأردبيلي، فحرر السلطان علي، الشقيق الأكبر للسلطان إسماعيل وباقي الأسرى، لكنه خاف من نفوذ السلطان علي وقدرته حين استقبله أهالي أردبيل استقبالاً عظيماً، واستطاع السلطان علي أن يهزم بايسنقر بمساعدة جيشه، ولكن رستم ميرزا بدل أن يكافأه على هذه الخدمة، قتله في طريقه من أردبيل إلى تبريز، وحاول السلطان علي أن ينقذ حياة أخيه الأصغر إسماعيل ميرزا في آخر لحظات عمره، فأوصى أصحابه ليأخذوه إلى مكان آمن، وهكذا بقي إسماعيل الذي كان يبلغ من العمر آنذاك سبع سنوات على قيد الحياة[24].

عاش إسماعيل ميرزا في أردبيل بشكل مخفي لفترة من الزمن، ثم سافر إلى لاهيجان ليعيش في أمان، وحظي هناك بدعم «كاركيا ميرزا علي»، أمير لاهيجان وديلمان الشيعي، وتعلم إسماعيل في لاهيجان اللغة الفارسية والعربية والقرآن وأصول مذهب الشيعة الإمامية من أستاذه «شمس الدين اللاهيجي»، وتعلم أيضاً فنون الحرب من سبعة من كبار الصوفية، وحين بلغ الثالثة عشرة من العمر، عاد إلى أردبيل مرة أخرى، فالتحق به جمع كثير من الصوفيين[25].

---

(24) شاه إسماعيل أو ل، منوتشهر بارسا دولت، منشورات شركت سهامي انتشار، الطبعة الاولى ، 1996م، ص125.

(25) دايرة المعارف بزرك إسلامي (دائرة المعارف الإسلامية الكبرى)، مادة: إسماعيل أو ل صفوي، مهدي كيواني.

تولى شاه إسماعيل (1501-1524م) منذ سنة 1494م زعامة التنظيم، وقام بسلسلة حروب، ففي عام 906هـ/1500م، هجم إسماعيل على شروان لأخذ ثأر أبيه، والجهاد مع أهالي «تشركس» المسيحيين، وكان قد أحضر معه جيشاً من القزلباش يبلغ عدده سبعة آلاف جندي، فاستطاع أن يهزم «فرخ يسار» حاكم التشركس مع عشرين ألف جندي، وفي عام 907هـ/1501م استطاع إسماعيل ميرزا أن يهزم «الوند ميرزا آق قويونلو»، الذي كان حامياً لشروانشاه قرب نخجوان، ثم دخل تبريز عاصمة «آق قويونلو» منتصراً فاتحاً[26].

حينذاك أعلن إسماعيل، تأسيس الحكومة الصفوية، واختار التشيع مذهباً رسمياً للبلاد في تبريز، ويحدث هذا لأول مرة في تاريخ الإسلام، إذ لم يعلن التشيع مذهباً رسمياً قبل الصفوية في العالم الإسلامي، رغم أن بعض السلالات الحاكمة قبل الصفوية كانت شيعية أيضاً أو تميل إلى التشيع، وكان اختيار اسم الصفوية يرمز إلى اسم الجد الأكبر للصفوية، وهو الشيخ صفي الدين الأردبيلي، تبركاً وتيمناً به[27].

---

(26) إيران در روزگار شاه إسماعيل وشاه طهماسب (إيران في عهد الشاه إسماعيل والشاه طهماسب)، أمير محمود بن خواندمير، باهتمام: غلامرضا طباطبايي، منشورات: مؤسسة موقوفات دكتر محمود افشار يزدي، 1991م، طهران، ص56.

(27) إيران در روزگار شاه إسماعيل وشاه طهماسب (إيران في عهد الشاه إسماعيل والشاه طهماسب)، امير محمود بن خواندمير، باهتمام: غلامرضا طباطبايي، منشورات: مؤسسة موقوفات دكتر محمود افشار يزدي، 1991م، تهران، ص126.

لم تكن غالبية أهل تبريز من الشيعة آنذاك، ولكن الملك إسماعيل استطاع بمساعدة مريديه الذين كانوا يؤمنون به ويحترمونه بشدة، أن يفرض عليهم التشيع، ويؤسس حكومته الشيعية، فوقف يوماً على منبر المسجد الجامع بتبريز، وسلّ سيفه وادعى بأنه مأمور بالجهاد[28] بأمر من الإمام صاحب الزمان، فخاف أهل السنَّة من حركته الجريئة، وأذعنوا لأوامره، وأمر الخطباء والمؤذنين بإضافة الشهادة الثالثة «أشهد أن عليّاً ولي الله»، وعبارة «حي على خير العمل» في الأذان، كما أمر بإنشاء مدارس لتدريس المذهب الشيعي ونشره بين الناس، ولكن الميول الشيعية في شتى أنحاء إيران قد مهدت الطريق له، فلم يواجه صعوبات كبيرة في جعل التشيع مذهباً رسمياً في البلاد، وهكذا تأسست الدولة الصفوية، أول دولة إيرانية مستقلة حكمت إيران بعد ثمانمائة سنة، أي منذ دخول الإسلام في إيران في العام 32 الهجري/652 الميلادي[29].

تأسست الدولة الصفوية أواخر القرن الخامس عشر (1494م)، واستمر وجودها أكثر من قرنين من الزمن، وكان لها أثر بالغ في مجمل الأحداث في ذلك العصر، وقد تمكن الشاه إسماعيل الصفوي (ت 1524م) في فترة قياسية أن يجتاح إيران ومناطق كثيرة من العراق، فاستولى بعد تبريز على مناطق غيلان، من محافظات شمال إيران على شاطئ بحر قزوين، ثم واصل توسعه في سنوات 1499-1501 حتى شمل كامل بلاد فارس (إيران)، وقام بطرد القراقويونلو سنة 1507م، واستولى على العراق.

---

(28) الصلة بين التشيع والتصوف، كامل مصطفي الشيبي، طهران، منشورات امير كبير، عام 1359، ص388.
(29) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، سيد حسن الامين، مادة: الصفوية، دارالتعارف، بيروت، 1997.

توالت الحروب بين شاه إسماعيل والعثمانيين على الحدود الغربية من البلاد من جهة، وبين الأوزبك (الشيبانيون في بخارى) على الحدود الشرقية من جهة أخرى، واستطاع الملك الشاب أن يهزم الأوزبك على الجبهة الشرقية، ويقتل ملكهم الأمير محمد الشيباني في سنة 1510، ولكن على الرغم من تلك الانتصارات، لم يحقق إنجازات على الجبهة الغربية، فتوقفت فتوحاته الباهرة في معركة «شالديران» أمام العثمانيين، الذين أصابهم الخوف من هذا الفاتح الشاب، فاستعانوا بالأسلحة النارية ومنها المدافع، فسحقوا جيش إسماعيل الذي كان يقاتل بالسيف والأسلحة البدائية[30]. خسر إسماعيل معظم أفراد جيشه في هذه الحرب وأسرت زوجته على يد الجيش العثماني ولم يستطع إرجاعها، حيث وهبها الخليفة العثماني إلى أحد كبار ضباط جيشه، فأدمن الملك الصفوي على الخمر، وبقي يعاني آثار الهزيمة حتى مات متأثرا بمرض السل عام 1524م، وهو في السابعة والثلاثين من عمره، ودفن في أذربيجان[31].

يعتقد بعض المؤرخين للحقبة الصفوية مثل الأميني والخواندمير، أن الشاه إسماعيل كان يتمتع بصفات القيادة من الذكاء والصبر والشجاعة، والقدرة على حشد الجماهير والتأثير فيها والتحكم بها وتوجيهها. كما كان أتباعه يعتبرونه ملكا عادلا، ويذكرون بأنه كان شيعياً خالصاً في إيمانه،

---

(30) الصلة بين التشيع والتصوف، كامل مصطفى الشيبي، طهران، منشورات امير كبير، عام 1359هـ/1940م، ص367-366.

(31) انقلاب الإسلام بين الخواص والعوام، محمد عارف اسهناقچي پاشازاده، منشورات دليل، قم، الطبعة الاولى، ص112.

وقد قام من أجل إحقاق الحق وإحياء الشريعة وتطبيق العدالة وقمع الظلم والجور في إيران. وكان رجلا محبا للشعر والشعراء والأدباء، وكان يقرأ الشعر بالتركية والفارسية والعربية، وله ديوان شعر بالتركية فيه قصائد يمدح فيها الرسول الكريم والأئمة الاثني عشر[32]، ولكن رغم ذلك يبقى إسماعيل شاها كنظائره من الملوك، بعصبيته وجبروته وفساده الناشئ من طبيعة السلطة، وأهم ما يؤخذ عليه قسوته الشديدة مع خصومه وميله للانتقام منهم.

حكم بعد إسماعيل، ثلاثة عشر ملكاً حتى انقراض تلك السلسلة، وفي ما يلي جدول بأسمائهم وسنوات حكمهم:

الحكام الصفويون	فترة الحكم		الحياة	
إسماعيل الأول بن حيدر	1501	1524	1487	1524
طهماسب الأول بن إسماعيل	1524	1576	1514	1576
إسماعيل الثاني ابن طهماسب	1576	1578		
محمد خدا بنده بن طهماسب	1578	1587		
عباس الأول بن محمد خدا بنده	1587	1629		
الصفي الأول بن صفي ميرزا	1629	1642		
عباس الثاني بن الصفي الأول	1642	1666		
الصفي الثاني بن عباس الثاني (ومنذ1668م حكم بإسم سليمان)	1666	1694		

(32) فتوحات اميني، امير صدر الدين إبراهيم اميني، مركز الوثائق للمكتبة المركزية في جامعة طهران، النسخة الخطية رقم 5750، الورقة رقم 170.

الحكام الصفويون	فترة الحكم		الحياة	
حسين الأول بن سليمان الاول	1694	1722	1668	1726
طهماسب الثاني بن حسين الأول	1722	1732	1704	1740
عباس الثالث بن طهماسب الثاني	1732	1736	1732	1740
سليمان الثاني حفيد سليمان الأول	1749	1750	1714	1763
إسماعيل الثالث بن مرتضى	1750	1773	1733	1773

الملك طهماسب الأول بن إسماعيل

وصل إلى الحكم بعد ممات أبيه وهو في الحادية عشرة من عمره، فتحكم الأمراء القزلباش بالحكم، وظهرت خلافات بينهم، فضعفت الدولة الفتية وطمع الأعداء السابقون في الحصول على فتوحات في متصرفات الدولة الصفوية، فسيطر عبيد الله خان الأوزبك على هرات ومناطق من خراسان، وسيطر الخليفة العثماني سليمان القانوني على العراق وجزء من آذربيجان، كما ظهرت انقلابات عديدة في مناطق مختلفة من البلاد، في خراسان وبغداد وتبريز وغيرها، ولكن سرعان ما استطاع طهماسب أن يستعيد قواه ويحكم سيطرته على المناطق المنتزعة، فعاد التوازن إلى ما كان عليه في نهاية حياة الملك إسماعيل، ونقل العاصمة من تبريز إلى قزوين تحرزا من الهجمات العثمانية، كما استطاع طهماسب أن يحيّد أعداءه عن طريق سياسته المتوازنة، وتسويته للمشاكل الدينية.

اتسمت فترة طهماسب بالاستقرار النسبي، فلم يستمرّ بالفتوحات، رغم أنه استطاع الحفاظ على ما فتحه أبوه الشاه إسماعيل، كما قام طهماسب في عهده بتشجيع حركتي الآداب والفنون[33].

الملك إسماعيل الثاني بن طهماسب

كان إسماعيل مسجونا منذ عشرين سنة في حياة أبيه بسبب بعض مخالفاته، إلى أن مات أبوه طهماسب، وكان من المتوقع أن يصل أخوه حيدر إلى سدة الحكم، ولكن انقسم الأمراء القزلباش إلى فئتين كل منهما تؤيد واحداً من الاثنين، فاتجهت الأمور نحو غلبة مؤيدي إسماعيل، فقُتل حيدر وحُرّر إسماعيل من السجن، وانتقل إلى القصر مباشرة.

كان إسماعيل الثاني عنيفا في تصرفاته وتعامله مع الآخرين فسرعان ما بدأ بقتل ستة من إخوته وعدد آخر من العائلة الصفوية، وقام بمجازر وتصفيات كبيرة في صفوف الأسرة الحاكمة والأمراء القزلباش، فتواطأ ضده عدد من المتنفذين من داخل الأسرة، ودسوا له السم وقتلوه، وقيل إنه مات إثر الإفراط في استعمال الترياق.

لم يحكم إسماعيل الثاني سوى سنة واحدة وبضعة أشهر، اتسمت بالتسامح مع أتباع المذاهب السنّية، وحاول الملك إدخال بعض الإصلاحات

(33) تاريخ فرهنك وتمدن إيران در دوره صفوية (تاريخ ثقافة وحضارة إيران في العهد الصفوي)، عباس قدياني، منشورات فرهنك مكتوب، طهران، الطبعة الرابعة، 2000م، 50–59.

الدينية، أهمها منع لعن الخلفاء، فاتُّهم بميله وتبعيته لأهل السنّة، وعدم الالتزام الكامل بمبادئ التشيع[34].

الملك محمد خدابنده ابن طهماسب

كان إسماعيل الثاني قد أمر بقتل أخيه محمد، الذي كان حاكما على ولاية شيراز، ولكن في اللحظات الأخيرة قبل تطبيق الحكم، أذيع خبر موت أخيه الملك إسماعيل، ولم يكن آنذاك أميراً حياً في آل الصفويه سوى محمد، فنجا من القتل، واختير سلطاناً للبلاد، ولقب نفسه بخدابنده، بمعنى عبد الله، شكراً وامتناناً لتخلصه من القتل وحصوله على الملك.

كان محمد رجلا ضعيفاً يحمل مجموعة من الأمراض، فلم يستطع أن يمسك بزمام الأمور، فظهرت خلافات ونزاعات شديدة بين الأمراء القزلباش، وكل فئة منهم كانت متمسكة بأحد أولاد محمد، في حين كان العدوّان اللدودان، الأوزبك والعثمانيون، قد شنوا حربا جديدة على إيران.

كان الملك محمد خدابنده عاجزاً عن تسوية الأمور وحل النزاعات والسيطرة على الأوضاع ورد الهجوم الخارجي، رغم تحقق بعض الانتصارات على الجبهة الغربية ضد العثمانيين على يد ابنه حمزه ميرزا،

(34) دايرة المعارف بزرك إسلامي (دائرة المعارف الإسلامية الكبري)، مادة: إسماعيل دوم صفوي.

فأعلن ابنه الآخر عباس ميرزا نفسه ملكاً، وانتقل من خراسان التي كان حاكما عليها، إلى قزوين وهي عاصمة الصفويين آنذاك، مستعينا بعدد من الأمراء القزلباش، وكان الملك خدابنده في شيراز حين سمع بإعلان ابنه نفسه ملكا، فلم يقاوم القرار، وأعلن استقالته، ووضع التاج على رأس ابنه أمام أمراء الجند وقادة الجيش والوزراء[35].

الملك عباس الأول ابن محمد خدابنده

نصب عباس ميرزا نفسه سلطانا على البلاد الصفوية وهو في الثامنة عشرة من عمره، وواجه الملك الشاب صعوبات كبيرة في بداية تسلمه للحكم، فكان الأوزبك والعثمانيون قد شنوا هجوماً على إيران، واحتلوا مدناً ومناطق كثيرة منها، ومن جهة أخرى كان هناك عدد من الولايات في داخل إيران قد أعلنت استقلالها ورفضها للخضوع تحت راية الحكم الصفوي، فاضطر الشاه عباس أن يصالح العثمانيين، ويقدم لهم تبريز وكرجستان ومناطق واسعة من شمال غرب إيران ثمنا لتلك المصالحة.

ثم بدأ عباس بعد ذلك بإخماد الانقلابات الحادثة في يزد وكرمان وجيلان وغيرها، وإخضاع الحكام المتمردين للسلطة، وبعد ذلك ذهب لمحاربة الأوزبك، الذين كانوا قد سيطروا على مشهد ومدن أخرى من

---

(35) تاريخ فرهنك وتمدن إيران در دوره صفوية (تاريخ ثقافة وحضارة إيران في العهد الصفوي)، عباس قدياني، منشورات فرهنك مكتوب، طهران، الطبعة الرابعة، 2000م، 61 – 64.

خراسان، ونهبوا التحف الموجودة في حرم الإمام الرضا، وأحرقوا الكتب وقتلوا عدداً غفيراً من الناس.

استطاع الشاه عباس أن يهزم الأوزبك من الأراضي الإيرانية، ويكفي شرهم لمدة طويلة من الزمن، وبعد ذلك وجّه جيشه بقيادة «الله وِردي خان» نحو جنوب إيران، الذي كان قد سيطر البرتغاليون على عدد من مدنه وجزر الخليج منذ نحو قرن، فاستطاع تحرير المناطق المحتلة، وأحكم سيطرته على ميناء كمبرون، الذي سمي في ما بعد باسمه بندر عباس، وجزيرة هرمز والبحرين وعمان، ثم اتجه نحو العثمانيين، وبعد حروب عديدة ومريرة استطاع أن يسترجع جميع ما قد وهبه للعثمانين، بل أعاد العراق للسيطرة الصفوية بعدما كان قد سيطر عليه العثمانيون في نهايات حكم طهماسب[36].

تمثل فترة حكم الشاه عباس، الحقبة الذهبية للمرحلة الصفوية، فبعد اضطرابات عديدة، استقر حال الدولة أثناء عهده وانضمت البحرين -كامل الساحل الشرقي من جزيرة العرب- إلى إيران سنة 1601م، واستولى على أذربيجان سنة 1603م، ثم شيراز، وأرمينية وأجزاء من أفغانستان سنة 1608م، وقام سنة 1624/23م بضم العراق وكردستان مرة أخرى.

(36) تاريخ فرهنك وتمدن إيران در دوره صفوية (تاريخ ثقافة وحضارة إيران في العهد الصفوي)، عباس قدياني، منشورات فرهنك مكتوب، طهران، الطبعة الرابعة، 2000م، ص65–73.

وعلى الصعيد الداخلي أيضاً، تمكن الشاه عباس من تحقيق إنجازات عديدة، فقام بإصلاحات شاملة في الجيش، واستعان ببعض من العبيد المسيحيين لقيادة هذا الجيش، وببعض الدول الأوروبية لتجهيز جيشه بالأسلحة النارية الحديثة، وأسس أول أسطول بحري في الخليج، واستطاع عن طريق سيطرته على الخليج الفارسي أن ينظم التجارة، فانتعش اقتصاد البلاد، وقد عَمّر الشاه عباس مدينة أصفهان، ونقل العاصمة من قزوين إليها، وجعل منها أهم مدن العالم في تلك الفترة، وتم أيضاً في فترة حكمه، إقرار العديد من المراسيم الخاصة بالقصور، والتي تتعرض لواجبات الحاشية تجاه الشاه.

خلفه بعد موته على العرش، حكام كانوا في الأغلب ضعيفي الشخصية، فلم يستطيعوا الحفاظ على إنجازاته، لا بل فقدوا الكثير منها تدريجياً[37].

الملك صفي الأول ابن صفي ميرزا

كان للشاه عباس أربعة أولاد ذكور: صفي ميرزا الذي قتل بأمر أبيه، طهماسب ميرزا وقد مات أثناء حكم أبيه، محمد ميرزا وإمام قلي، وقد سملت أعينهم بأمر الملك الأب، فأوصى الشاه عباس قبل مماته بتعيين سام ميرزا ابن صفي ميرزا خلفا له، فجلس الملك الجديد على العرش وهو في

(37) صفويه از ظهور تا زوال (الصفوية من الظهور الى الزوال)، رسول جعفريان، منشورات: مؤسسه فرهنكي دانش وانديشه معاصر، طهران، الطبعة الاولى، 1999م.

السابعة عشرة من عمره، ولقب نفسه بشاه صفي إحياء لذكرى أبيه الراحل، وكان الشاه صفي رجلا ضعيفا يفتقد التجربة والمؤهلات الضرورية لممارسة السلطة، فشهدت إيران في أيام حكمه، اضطرابات عديدة، وانشغل الملك الشاب طوال فترة حكمه في رد حملات الأوزبك والعثمانيين. مات الملك في سنة 1052 الهجرية/1642 الميلادية في الحادية والثلاثين من عمره، فلم يحكم سوى ثلاث عشرة سنة، ودفن في مدينة قم[38].

الملك عباس الثاني ابن صفي الأول

وصل إلى الحكم في العاشرة من عمره، فتسلم الأمراء ورجال السلطة مقاليد الأمور، واتسمت فترة حكمه بالهدوء النسبي والرفاهية العامة في البلاد، ولأول مرة تحسنت علاقات الصفوية والأوزبكية، واستضاف الملك الصفوي اثنان من ملوك الأوزبك في أراضي إيران، وساعد أحدهم على رد هجوم الملك الكوركاني الهندي على أراضيه، وقام عام 1648م بضم أجزاء جديدة من أفغانستان إلى دولته.

عاشت الدولة الصفوية مجدها الأخير أثناء عهد عباس الثاني، والذي كثف من التبادل التجاري مع الدول الأوروبية، عبر الشركات التجارية العاملة في المنطقة، كما قام ببعض الإصلاحات الداخلية[39].

---

(38) تاريخ فرهنك وتمدن إيران در دوره صفوية (تاريخ ثقافة وحضارة إيران في العهد الصفوي)، عباس قدياني، منشورات فرهنك مكتوب، طهران، الطبعة الرابعة، 2000م، ص74.

(39) تاريخ فرهنك وتمدن إيران در دوره صفوية (تاريخ ثقافة وحضارة إيران في العهد الصفوي)، عباس قدياني، منشورات فرهنك مكتوب، طهران، الطبعة الرابعة، 2000م، ص74 – 77.

الملك صفي الثاني ابن عباس الثاني

تسلم العرش بعد موت أبيه، وغير اسمه بعد فترة من الحكم، فأصبح يعرف بشاه سليمان بتوصية من بعض منجّميه، للاحتراز من نحس الأوضاع الفلكية حسب معتقداتهم، وكان الملك بعيداً عن السياسة، ولم يعرف شيئا عن الحكم، ولكن من حسن حظه كان له وزراء أكفاء، كما كانت دول الجوار في حالة ضعف ومنشغلة بتسوية أمورها الداخلية، أو رد الحملات الخارجية من جهات أخرى، فلم تحصل أية انتكاسة في فترة حكمه.

شهدت البلاد في تلك الفترة، تحسن العلاقات الاقتصادية والتجارية بين إيران والدول الأوروبية بشكل ملحوظ، وسافر عدد من الرحالين الغربيين إلى إيران، ومن أشهرهم «شاردن» الفرنسي و«تاورنيه»، وتعتبر رحلاتهم من أهم المصادر التاريخية لدراسة الحقبة الصفوية، كما شهدت أصفهان إعمارا كثيفاً في تلك الفترة، وأقيمت فيها عمارات أثرية من أشهرها عمارة «هشت بهشت»، بمعنى الجنات الثماني[40].

الملك حسين الأول ابن سليمان

تمثل فترة حكم الشاه حسين، مرحلة الانحطاط والفتور في التاريخ الصفوي، فقد كان الملك ضعيف النفس وجاهلا بالسياسة وتدبير

---

(40) تاريخ فرهنك وتمدن إيران در دوره صفوية (تاريخ ثقافة وحضارة إيران في العهد الصفوي)، عباس قدياني، منشورات فرهنك مكتوب، طهران، الطبعة الرابعة، 2000م، ص77 - 80.

الأمور، فأصبح ألعوبة بيد الأمراء والوزراء، وشهد اقتصاد البلاد تقهقراً سريعاً في أيام حكمه، وحدثت عدة مجاعات عامة في عهده إثر سوء تدبيره، فكانت الأولى سنة 1119هـ/1707م، والثانية سنة 1130هـ/1717م، وآخرها وأشدها في عامي 1134 و1135هـ/1721 و1722م، والتي نجمت عن المحاصرة الأفغانية، وانتهت بالقضاء على الحكم الصفوي، إلى جانب القضاء على الرعية الفقراء(41).

وينقل التاريخ أن الناس في أصفهان (عاصمة الصفوية) صاروا يأكلون الكلاب والقطط والفئران، وحتى فضلات الحيوانات أو موتى البشر، وقاموا باختطاف الأطفال وأكلهم بكل ولع، أما اللحوم التي كانت تباع في المحلات فكانت لحوم بشر(42).

كما تسبب حسين الأول في إثارة الطائفة السنِّية عندما أظهر عدم التسامح في تعامله معهم، وتعصبه الشديد للمذهب الشيعي، ومنذ سنة 1719م، بدأ زحف الأفغان السنّة، والذين كانوا يعيشون تحت راية الدولة الصفوية، نحو أصفهان، وأخذ ميرويس أحد القادة الأفغان يجمع عدداً من الفتاوى تبيح للمواطنين السنّة القيام ضد السلطة الشيعية، فاستطاع أن يوحد كلمة الأفغان السنّة، وبعد فترة من الزمن، وفي عهد ابنه محمود، استولى هؤلاء على أصفهان سنة 1722م، وقاموا بخلع شاه حسين، الذي قدم لهم التاج بنفسه، واستقال عن الحكم، ثم أعدموه سنة 1726م.

---

(41) احمد كتابي، بجوهشي در زمينه جمعيت شناسي تاريخي إيران، فصلية جمعيت، العدد 25 و26، ص34 إلى 58.

(42) علل سقوط شاه سلطان حسين (أسباب سقوط الشاه حسين)، دوسرسو، الترجمة الى الفارسية: ولي الله شادان، منشورات كتابسرا، الطبعة الاولى، 1985م، ص23-12.

انهيار الدولة الصفوية ونهايتها

دفع الشاه عباس الكبير بإيران إلى التقدم، لكنه زرع في الوقت نفسه بذور الضعف فيها، فمنذ أيام عباس الكبير، شاع في أوساط الأسرة الصفوية قتل بعضهم خوفاً على المناصب، فكانوا يقتلون كل من يتوجسون منه خيفة من أقاربهم، حتى وصل الأمر بهم إلى قتل أبنائهم القصّر، كما فعل الشاه عباس الكبير نفسه، حيث أسمل أعين أبنائه الأربعة وقتلهم. كما كانت كثرة العداء مع الجيران المسلمين سبباً قوياً في إنهاك الدولة وإضعافها، فلم تسع من خلال الحروب التي خاضتها مع الدولة العثمانية والأوزبك والأكراد والأفغان إلى توحيد المسلمين تحت راية واحدة وإقامة خلافة إسلامية، وإنما استهدفت السيطرة ومد النفوذ وقتل كل من يعارض ذلك، لهذا استمرت الحروب مع الجيران، فأدت إلى إضعاف الدولة الصفوية، ومن ثم انهيارها.

أما القهر الذي كان يمارس ضد الشعب، والشطط في جباية الضرائب، وظلم العمال فقد أحدث ثورات داخلية، كذلك الضعف الاقتصادي الذي ألم بإيران في عصر الشاه عباس نتيجة النظام الإقطاعي الذي أوجده، أدى إلى حدوث مجاعات وقلة في المؤن، فحتى العسكر لم يحصلوا على مرتباتهم[43].

---

(43) الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، محمد عبد اللطيف هريدي، ط1، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ص94.

ولكن الأفغان أيضاً لم يستطيعوا إحكام سيطرتهم على إيران، نظراً لظهور خلافات عميقة بينهم وبين العثمانيين، أدت إلى نشوب حروب عنيفة بينهما، وظهرت أيضاً عدة انقلابات في داخل إيران تطالب بإعادة الحكم الصفوي وإخراج الأفغان من إيران، فكانت الفوضى سائدة في أرجاء إيران، إلى أن استطاع قائد طموح باسم «نادر الافشار» نيابة عن طهماسب ابن شاه حسين الصفوي أن يقود جيشاً غفيراً من الإيرانيين، ويُخرج آخر بقايا الأفغان من إيران، بل يحتل مناطق واسعة من أفغانستان والهند ومناطق أخرى من البلاد العثمانية[44].

أدى ظهور خلافات بين نادر وطهماسب الصفوي إلى خلع الأخير، ونصب ابنه الرضيع عباس الثاني، شاهاً جديداً، وبعد فترة وجيزة من عزل نادر شاه لطهماسب، وتنصيب ابنه الرضيع مكانه وتعيين نفسه وصياً عليه، جمع القادة والأعيان في موقف واحد، وسألهم من يختارون للحكم؟ فأجمعوا على اختياره، وقد علموا بحرصه على هذا الخيار، فعزل الشاه عباس الرضيع، وكانت هذه نهاية الدولة الصفوية، وقتل هذا الأخير أيضاً كأبيه عام 1153هـ/ 1740م.

وأخيراً أعلن نادر شاه نهاية الفترة الصفوية، ونصّب نفسه شاهاً باسم السلسلة الافشارية على إيران، ولكن سوء تعامله مع ضباط وأمراء جيشه والوزراء في نهاية عمره تسبب في حدوث انقلاب عليه، فقُتل في

---

(44) الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، محمد عبد اللطيف هريدي، ط1، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع صص247 و248.

النهاية حين كان نائما في منتصف الليل، وفي الفترة نفسها ظهرت سلسلة جديدة في جنوب إيران بقيادة «كريم خان الزند»، وهو أيضاً حاول أن يستغل اسم عدد من الأفراد المتبقين من الأسرة الصفوية لتمهيد الحكم لنفسه، فعين أحد أحفاد السلطان حسين باسم إسماعيل الثالث شاهاً جديداً في أصفهان، ثم نفاه بعد ذلك من أصفهان لينفرد بالسلطة.

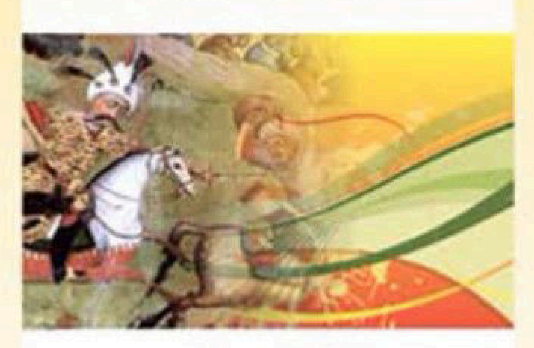
كما ظهر عدد آخر ممن يدعون الانتماء إلى الأسرة الصفوية للوصول إلى الحكم وإعادة السلسلة الصفوية، ولكن استمرت الأحداث نحو إلغاء السلسلة نهائيا، وكانت السلطة الحقيقية آنذاك في بلاد فارس يتقاسمها الزند والأفشاريون، حتى انتقلت بعدها إلى القاجاريين[45].

---

(45) صفويه از ظهور تا زوال (الصفوية من الظهور الى الزوال)، رسول جعفريان، منشورات: مؤسسه فرهنكي دانش واندیشه معاصر، طهران، الطبعة الاولى، 1999م.

الصفويّة

التاريخ والصراع والرواسب





إن المتابع لما يجري من خلاف مذهبي بين السنّة والشيعة في أيامنا الحاضرة، سيجد أنّ له صلة ما بتركة دولتين أصبحتا في ذمّة التاريخ هما الدولة الصفوية والدولة العثمانية. هذا ما دعانا للغوص في تفاصيل الدولة الصفوية، بدءاً من أسباب نشأتها إلى أفولها سياسياً، وما جرى بينها وبين الدولة العثمانية من حروب أكلت الألوف المؤلفة من شعوب المنطقة على مختلف قومياتها وأديانها ومذاهبها.

يسدّ هذا الكتاب ثغرة في مكتباتنا العربية، التي لم تعطِ كبير عناية للدولة الصفوية في إيران، على الرغم من أهميّة تلك الدولة التي امتدت حقبتها قروناً على تخوم المنطقة العربية، ودخلت مع منافستها العثمانية في صراع مذهبي وسياسي مرير. وربما تفسّر إعادة قراءة تلك المرحلة كثيراً من الأحداث التي تتسارع حدّة وشدّة وتعصّباً في منطقتنا اليوم.

ISBN 978-9948-443-28-5



